محمد قطب

البنات والقمر

قصص قصيرة

الكتاب: البنات والقمر .. قصص قصيرة

الكاتب: مُحَمَّد قطب

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قطب ، مُحَمَّد

البنات والقمر .. قصص قصيرة / مُحَمَّد قطب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٥٩١ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢١٧٤٨ / ٢٠١٧

البنات والقمر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

البنات والقمر

وقف الولد المجذوب على حافة الجسر يرنو إلى البيت الواطئ الساكن خلف الأحراش والنخيلات السامقة. كان ينتظر اللحظة التي يوارب فيها الباب قليلاً، وعينه التي كعين الصقر تنقض على اهتزاز ضئيل يتمشى في جسد الباب الخشبي. ويصبح سمعه رهيفاً حاداً وهو يماشي حركة اليد من الداخل وهي تسحب في خفة نملة سحاب الباب الخلفي. ويظل قلبه ينغل عليه ووشوشات صوت محموم تنسرب من شق طولي دقيق بطول نافذة غرفة النوم القبلية. تشير إليه أن يدخل، وينفتح الطريق للمنتظر.

يذكر أنه لم يتخلف مرة عن موعده. فالأمر قد استقر بينهما على أن تكون ليلة الثلاثاء هي الموعد. وبدت الدقة في النظام المتبع طقساً لا يتغير، ولا يتعدى زمنه. حتى إذا واتته رغبة طارئة –في غير موعدها– كان ينضغط، ويئد زهوة انفعاله. وإذا تمرد على الطقس مرة، فإنه يواجه بسكون يشمل المكان وبصمت ثقيل يلف البيت، وبباب صلد يحجب ما وراءه، ولا يوحي بثمة حياة. مع أنه يعلم تماماً أن الداخل يعبق بالدفء، وينعم بروائح تتفتح لها المسام، وببخور ينعقد في سماء الغرفة كغيمة تطفئ اللظى.

عود نفسه على أن يصبر على المليحة الملحمة، وأن يدرب قواه على التحمل إلى أن يحين الموعد. ولكنه هذه الليلة لن يتراجع، فالليلة موعده، ولن يقبل أن تخدعه في أمر ثابت، وكفاه ما يفعله بنفسه طوال الأسبوع. لن يسمح لها أن تنظم – بمفردها– أوقات الرغبة حتى لكأنها تقصده قصداً. فتختزن، وتظل تختزن حتى إذا ما جاءها – وهى ترتب الأمر هكذا– ينفك المغلق وتنطرح الأعضاء على مدى الحس ويبدو الأمر كأنه باغتها فجأة.

والآن ماذا يفعل؟ أيرجع خائباً؟ أيكون قد طرأ طارئ أعجزها؟ أنها دائماً –في موعدها معه– تذلل كل صعب. فما بالها أوصدت الباب وتجاهلته. حتى الرجل بالداخل لم يكن يوماً عائقاً لها!..

وأصر على الانتظار، وسيبقى قائماً كالعمود، مرشوقاً كالسيف. لكن الوقت يمضي والليلة موعده.

في ليلة الثلاثاء تعود أن يعطي نفسه أجازة يستريح فيها ويستعد، فلا يذهب إلى الغيط، ولا يلبي طلباً واحداً، ولا يحمل البرسيم، ولا ينزح "الترنش"، ولا يدخل الزريبة، ولا ينقل الروث والسباخ، ولا يأتي بالدقيق، ولا يلتفت لأحد، كان فقط ينطرح على حافة الجسر وينتظر، وعينه التي كعين الصقر تتحين الفرصة لينقض.

ما من أحد يسأل عنه إلا إذا احتاجه، ولكنه إذا احتاج شيئاً ناله، إلا هذا الأمر الذي أحياه، وأشعره بوجوده .. لم يرد على خياله البسيط حاجة كتلك الحاجة ولا امرأة كتلك المرأة. حدث الأمر كالعاصفة جاءته

وسحبته من يده، وأغلقت الباب، ودفعته إلى "الحموم" ثم أخذته ملأت جيبه بالحلوى، والدخان، ووضعت على كتفه جلباباً قديماً ثم دفعته إلى الخارج. هكذا مرة واحدة مباغتة دون أن يسمع منها كلمة واحدة سوى كل ثلاثاء تأتي.

ومع أنها لم تذكر اسمه على لسانها إلا أنه شعر بالسماء تنفتح، ولاحت له الأضواء مبهجة، ولزجة كعرقه الذي لم يجف، كان واقفاً تحت الفعل المدهش وظل طويلاً مدهوشاً، ومهتزاً، وسعيداً ولكنه الآن يكاد يستريب، انتصف الليل، وانتهى الثلاثاء، ولم ير ارتعاشة الباب ولا التقطت أذنه صوتاً يشي بانفراج الأزمة. لم يحدث ذلك من قبل فصمم على الفعل. الليلة موعدنا وستظل. ليس المجذوب عبيطاً، سيحصل على حقه، لن يتنازل عنه ولو لمرة واحدة. هكذا كان الأمر منها. وعليه أن يلبي، ولن تضحك عليه، ولن تذله. فتحت له الطريق ولن تغلقه.

لاح الداخل في عينيه دافئاً ومنصهراً فراح يلف، ويلبد، وينتظر، التصق بالباب، فسمع، تشمم، كان الصمت سياجاً فاهتاج وعاد إلى مكانه.

قفز في سرعة، واعتلى حافة الجسر، وتطلع إلى السماء. كان الفضاء مهيباً، والنجوم لامعات. وفرك عينيه. أمعن النظر وانتبه. كانت غبشة في عتمة شعر أنثوي تطوي الضوء وتميل على القمر فتضغطه، وتلفه، وتعكر ضوءه، واهتز.

كان القمر يجاهد إلحاح خصلات الشعر الكثيفة، بدا له كأن حائطاً ضخماً قد تهاوى على وجهه فحطمه، وخنقه، ولاحت له العروق النافرة تلفظ ضوءها الأزرق واهتم حزناً وتمتم تكاد الروح تذهب، وصاح في خوف، وصاح في جذل، وانطلق.

مرق المجذوب إلى " الدوار" ونادى في حدة على حضرة العمدة. هب الخفراء دفعة واحدة، واغتاظوا من صوته الزاعق في سكون ليل مطبق، واقتادوه في عنف.

ظل يصيح طالباً العمدة حتى هل مغتاظاً، نكداً فغرس عصاه في صدره وسبه بأمه.

أشار الولد إلى السماء، وإلى القمر، وإلى العمدة ونطق في ألم:

- إنه يموت.

رد العمدة بغل وهو ينظر إلى السماء:

- يا ابن المجنونة من الذي مات؟

نظر الوالد إلى السماء، وأشار إلى القمر، فأمال العمدة رأسه ثانية وتمعن في القمر، كان القمر يجاهد حصاراً ضاغطاً، فنطق العمدة في دهشة:

- القمر مخنوق

والتفت إلى الخفراء مؤنباً:

- كيف لم تلاحظوا ذلك؟

وجذب جلباب الولد في قبضة عفية وسأل:

- متى رأيته؟

أجاب الولد وهو يضع أصابعه على قبضة العمدة يتحسسها، يحاول أن يخلص ثوبه منها. إنه الثوب الهدية.

ثم نظر في ترحم:

- حين انتصف ليلة الثلاثاء ولم ينفتح الباب.

سأله العمدة مبهوتاً:

- أي باب؟

تنبه الولد وعلق ألماً:

- باب السماء.

أخرج العمدة ساعته من جيبه، كانت الساعة تقترب من الواحدة:

- الوقت متأخر.

أسرع الولد المجذوب في نبرة عطف مؤثرة:

- أتتركه يا عمدة يموت أمام عينيك؟

ضحك العمدة، فارتخت ملامح الخفراء وقال:

- وماذا نفعل يا أهبل يا ابن الهبلة.

- يأتي عمران بطبلته وننقذ القمر.

راح عمران يطوف بالأزقة ويدعو الناس إلى إغاثة القمر، طلب منهم أن يشاركوه محنته، وأن يتجمعوا في مواجهة بنات الجنة، وتطلع إلى أعلى، وطلب منهن أن يشفقن عليه، ويعطفن، فهو قمر واحد، وهن بنات كثيرات، مليحات، ومرغوبات، استسمحهن أن يطلقن قيده، فكفاهن ما أخذناه منه. وعلا الصوت محتداً وغاضباً. القمر يموت ونحن الضحايا، اتركنه لوجه الله.

واستيقظ النوام، وتقاطروا. وراح الموكب، يتزايد، ويتداخل. لم يسعفهم الوقت فلم يشعلوا مصباً فاختلطوا وتدافعوا ولاحت الرءوس ملتوية في اتجاه القمر، وصنعت البنات مجموعة كالجوقة– تحدو على دقات الطبلة. وعمران يتفنن بقطعة الجلد السوداء في تلوين الصوت، وتنغيمه.

وانبرت "خضرة" بصوتها المميز وقادت البنات وراحت تشدو في نبرات صوت مرتعش.

يا اللا بنات الجنة

سيبوا القمر يتهنى

ومضى الموكب يطوف بالشوارع، والأزقة، ويقف عند بيوت الأسر المعروفة. وكلما علا الصوت، وارتفع الشدو، وصعدت الاستغاثة، تنفتح

الأبواب، ويزداد العدد، وكان الولد المجذوب يطلق عينيه، ويتفرس في كل الوجوه الطالعة من أبوابها وسعد قلبه، وشاكس "خضرة" التي راحت تواصل الشدو.

يا اللا يا بنات الحور

سيبوا القمر يدور

كان الولد المجذوب يخترق الجمع كله، ويتملى الوجوه، وبدا كما لو كان يعدهم عداً. ولكنه في لحظة انسلاخه لم يفلت من قبضة مؤذن الجامع الذي جذبه من طوق جلبابه وأنبه على غيابه عن تنظيف "الميضأة" وكنيف الزاوية، وهدده بأنه لن يعطيه بعد اليوم مالاً، أو طعاماً من صدقة الناس إذا لم ينه عمله غداً.

تطلع إليه الولد وقال في خبث:

- إذا دعوت الليلة لي.

شده المؤذن مرة أخرى والولد ينزع يده:

- أدعو لك!

وضحك، فضحك الولد وتساءل في دهشة طارئة:

- ولكن بما أدعو لك؟

قال الولد وهو ينسحب مخترقاً الموكب:

- أن ينصلح الحال وينفتح الباب.

تعجب المؤذن من حال الولد المجذوب وذكره بابن سنية العمشاء .. كان هو الآخر مفلوتاً، لا تكاد تدركه حتى يفلت منك. وتدور أمه على الأبواب تجمع المال على "حسه"، ومع جسده الضخم فقد كان لين القياد. يعمل كل شيء ولا يتقن شيئاً. ولكنه دائماً يقوم بتشغيل الساقية كالثور، وينام بجوار الزاوية لا يهش الذباب الذي يتراكم على وجهه.

تنهد المؤذن، وأمال رأسه إلى السماء وتمتم:

- بلد مجاذيب.

كان عمران قد طاف بالأزقة، وأيقظت طبلته النوام، وأثارت خضرة في القلوب أسى على قمر الليالي. وزغردت النساء، وضجت القلوب تشفع بالنبي المصطفى، أن يفك ضيقه، ويريح النفوس. فترق بنات الجنة للقمر وينسين بهاءه الطاغي. لكن القمر كان يزداد انضغاطاً. ولم يفلت من أيدي البنات، وقلوبهن المريضة.

وكان الولد المجذوب ينحني خفية، ويميل في خفة ثعلب محاذر، ويشبك الثياب، ويعقد الأطراف. لم يكن الأمر صعباً عليه في ظل التلاصق والزحام. كان يحب أن يلعب بقلوب العذارى، وفورات الشباب، وكاد يضحك صاخباً والبنت في اندفاعاتها المباغتة تسحب وراءها صبياً يكاد يغفو. وكادت البنت تنكفئ لولا أن تلقاها الصبي وسندها بذراعه. شعرت

البنت بقوته على صغره فواجهته ضاحكة. فكا الثياب، وانسحبا إلى طرف الجمع.

نظرت البنت إلى الولد وقالت:

- أتعرف معنى الذي حدث!

حرك الولد رأسه ونفى معرفته في صوت منخفض وغاف:

- لا.. لا أعرف.

تملكها حياء، فنظرت إلى السماء، كانت بنات الجنة لا يزلن يضغطن على القمر، ويعصرن بهاءه، ويجمعنه في المآقي والقلوب، وتحت الجلد، وطي العصب، وبدا للعين أن القمر يستسلم ويطوي ضوءه ويمضي.

وتمتمت البنت في خفوت كأنما تهاجس نفسها:

- القمر اختار حبيبته.

رمقها الولد وانتظر، ثم أمال رأسه إلى السماء وتألم للقمر.

اقتربت، ووضعت كفاً صغيرة على الكتف، ورنت إلى العين وهمست:

- والبنت وافقت.

مسك الولد ذيل جلبابه وأسلم يده للبنت وسأل:

- أنت أكبر مني وتفهمين أكثر.

ضغطت على أصابعه، ووشوشته:

- لما تنعقد الثياب والقمر مخنوق تكون علامة على زواج.

واقتربت، وترنمت:

- تصبح البنت للولد.

واقترب وترنم:

- ويصبح الولد للبنت.

وانطلقا، كانا يتتبعان الجمع، ويمعنان النظر، وراحا يبحثان عن البنات والصبيان. كانت البنات يملن على الصبيان ويوشوشن في الآذان ويهمسن:

- القمر اختار حبيبته.

ونجح القمر وصمد، استطاع أن ينفك قليلاً، فتعالت الصيحات مستبشرة، وضحكت البنات، ورقصن في الصدور قلوب خافقات. ولون عمران إيقاعه، ومضى الموكب في دورته إلى الدوار، ليأخذ التمام، ويحصل على منحة السلامة. فها هو القمر قادر على أن يحتوي بالبهاء كل بهجات القلوب العاصفة.

وفي تلك اللحظة، لحظة انسلاخ القمر، انسحب المجذوب وانطلق كان قد رأى وجه الرجل في الزحام فانطلق. طوى المكان، ووقف أمام البيت. كان الباب مواراً، فمنى نفسه بمتعة خالصة، وهنأ عقله بما فعل،

فلم يعد شيئاً مهملاً!! بل إنه سعى ليثبت للمليحة أنه إذا احتاج شيئاً ناله، ولو كان هذا الأمر!! وأنه حريص على موعده، ولا يحب أن يتخلف عنه، أنه أمين، ولا يريد من أحد أن يجرح أمانته.

دفع الولد المجذوب الباب فاندفع، فسعد قلبه وانشرح الصدر وخطا إلى الداخل. وصل إلى سمعه الرهيف همس يشي ببحة، أرهف السمع فأحس بأن ثمة رعشة مبهجة، وأن الداخل مملوء. وخطا في توجس مباغت، وداهم الغرفة التي طالما انعقدت فيها سحابات البخور.

كان الأهبل بن نفيسة يفرش ملاءته على المليحة الملحمة ويعصر بهجتها.

البسمة النادرة

أفزعتني الدماء التي اندفعت كالنافورة. وجذبتني الأحشاء الملتوية، المهروسة، وارتجفت. ولاح لي أمر كأنه مكيدة. بل أنني على يقين بأن شيئاً ما كان يجذب الرجل وهو يمضي لقتل.

كان يجالس زوجته في أول المساء. فمن الذي دهاه لتسيل الدماء في غبشة الليل الأخيرة.

أطحت بالملاءة، والعرق ينضد الجبين ويسيل على الوجه والعنق. ما كل هذه الشراسة التي بدت عليه، وهو يقتحم الغرفة، ويمسك بالسكين ويفصل الرأس.

لم أكن أعلم أنه يمكن أن يفعل هذا الهول كله بضربة واحدة. وهو الذي كان إذا رأى دماً يهرب منه الدم ويلتوي عليه القلب. وكيف أتخلص من هذه العين التي تعلقت بي في ومضتها الأخيرة. كأنما تلوذ بي، أو تستدعي رحمة غير واردة.

كان الوميض الأخير يخترقني، حاداً كالنصل حتى أحسست بجلدي يتشقق ويحترق. أحمل في ذاكرتي هول النظرة، وأنا أخرج من نومي المزدحم المقلق، المرعب.

وأنتفض للهول الذي احتوى الجسد، ورحت أغلب تلك اليقظة المباغتة، وأنفض عني رجفة شاملة. أفرد ذراعي وأتمطى.

أدور برأسي في سكون الفراغ، مولياً بعيداً حتى لا أعود إليه وأوغل. مع أن انكفاء الجسد كان يملأ المشهد، وتتعالى شهقة كأنها الأتون المشتعل.

تلك الشهقة أيقظتني قبل موعدي المعتاد.

وليت رأسي تجاه "المنبه"، ورمقت العقرب خلسة، كأنما أخشى على نفسي من مداهمة المشهد. كان العصفور الدقيق المتخايل يترنح ويسقط على الخامسة.

أنكمش في ركن السرير وألعن ما رأيت.

كانت الأحلام تراودني حسبما أريد، أصنعها، وأتوقف عند منحدرات أريدها، بل أؤجلها في لحظة توهج ساخنة. ثم استأنف بعثها من جديد في أمسيات مقبلة.

لكنه الليلة داهمني على غير إرادتي، ولوى عنقي، وأغرق عيني في الدماء. ولو أنني غيرت عادتي بالليل لحق له أن يباغتني .. لكنني أمضيت ليلتي حسبما تعودت. لم يتبدل الطقس. أجالس زوجتي في المساء، وأداعب الأولاد، وأطمئن على واجبهم المدرسي، ونتعشى في زهو من يشعر بالدفء، والسعادة. ثم أحتسي شاياً ساخناً خفيفاً تصنعه زوجتي باهتمام مبالغ فيه. تقدمه إلي وثغرها الناصع يحاكي لمعان جيدها ومساحة الصدر العارية.

لم أفكر يوماً في أن أربط بين كوب الشاي وبسمتها الرائعة، الناصعة. لكنني على كل حال أمني نفسي بلحظات فرح، وبهجة انتشاء، وأنحي بوجدان مهتز ندرة ابتسامها، والعبسة المشدودة طوال اليوم، تتخذ بسمتها الناصعة الموحية في المساء منزلتها الحسية الخاصة في ظل زمة الشفتين، وتوالي الانقباض. وأعلل الأمر بالإعلان عن الوجدان، وأقبض في هسهسة شعورية على تلك اللحظة الموقوتة، وأمني النفس بدفء مرتقب وهي تقدم لي الكوب في صحبة البسمة النادرة.

ويمضي الطقس في مساره، كحركة الليل تعسها، يمتد الزمن ويتواصل. وقبل أن أنتهي من قراءة الصحيفة وأنهي في غفوة مسترخية برواز الأهرام الشهير "صدق أو لا تصدق". يأخذني النوم في دعة إلى شطآنه، أتجول في أجماته، وأحراشه، تلوح الفروع مشرئبة كالرماح نحو الأجمات الريانة فأهتز وأزبد.

تندك الأصابع في الرأس كالأشواك تنغرز في اللحم، ويخترقني صوتها الآمر الصاخب. أميزه من بين كل الأصوات، ولا يتوه مني وهي تتحدث مع الصحاب، يظل لرجعاته لسعة الجذوة المنطفئة. ويخلعني خلعاً، وأبدأ رحلة انسلاخ الوعي تماماً كما ينتزع الجلد.

أودع شطآني وأمطاري وزرعي والنابت في الربوة في السابعة صباحاً. لكن الساعة الآن الخامسة.

ما الذي جعل الشراع تعتصفه الريح ويتمزق ويحشرني في دفقة هائلة من الموج كالزبد الرابي. يترقرق فوقه ملامح أعرفها لم تخفها غطشة مظلمة.

أنفض عني الملامح، وأدعك الجبهة والصدر، وألصق الرأس بالجسد الذي أعرفه. وأميزه من بين كل الأجساد.

ألوي عنقي كاملاً حتى أتجنب حماة النظرة، وارتجافة الجسد، والبرزخ الممتلئ.

وأغتاظ،، يتملكني حقد شرير، ومشروع. حين أستيقظ –فزعاً– في الوقت الذي كنت فيه قابضاً عليه وهو يوغل في برزخ الدم.

كان القلب يبكي، أبكاني – في الحقيقة– ما رأيت فبكيت.

لم أصدق أنني قادر على التجاوز إلا بعد أن شققت لنفسي درباً ضيقاً خرجت منه وتنفست بعمق دهليز مجوف، وطرحت ذراعي على الفراش .. أتحسس جسدها، أغمطها في الصبر. إذ كيف لامرأة أخرى غيرها تنام وسط الأعاصير وأثباج البحر، وتداري ربوتها بأغصان مشرئبة وأوراق مخملية أجمعها من بين الشطآن ولا تمل.

انحطت اليد على خواء، لم أجدها بجانبي. لا أدرك –غالباً– متى تنام بجانبي ومتى تصحو. بل متى تلتصق، ومتى تفارق. لكنها على كل حال تنبئ عن وجودها وتحرص عليه حين تندك الأصابع في الرأس والساعة تدق السابعة.

كانت الملاءة مطوية بأصابع مدربة، كما لو كانت قد طويت للتو وشعرت بتخلص مفاجئ، وبعطش يبعث على الري ونهضت.

كنت أترنح وأنا أخب في مشيتي كالوليد. أكاد لا أصلب جذعي ولا أتعرف على الطريق الرأس ثقيلة، والنوم يفك خيوطه عن الجفون في بطء شديد، وفي قسوة. والرجل القصير البدين وهو ينحط على الجسد يوغل فيه، ويفتح المسام للدم، ويتسرب مع الهواء، ويذوب من قبضته. يواجهه .. يتصالب أمامه.

رميت بالذراع، أبعده، فارتمى في الفراغ وكاد يوقعني.

كانت الردهة شاحبة الضوء حتى كدت أغشي. هل الشحوب مقصود أم هو العادة. لا أكاد أجزم، فما أدراني ومنامي في الضوء ويقظتي في الضوء.

تريثت قليلاً وفي اللحظة التي لاحت فيها الأشباح باهتة .. لمحته، يقطع المكان مارقاً إلى الداخل، واجهته من الخلف. كان بديناً وقصيراً. ارتجفت وأنا مشدود بكلتى قدمي على الحصير الملون. ما الذي أتى به مرة أخرى . وعلى من يقع الدور؟ هل أنجح هذه المرة؟ وأجعله لا يفلت مني.

لا يفلت مني!. وانفتحت عيناي حتى احتوتا المشهد كله .. الردهة والأثاث والصور المعلقة، وصورة الوجه الباكي، ورسمات لأعشاب البحر. أنا إذن في بيتي، أنا يقظان في الحقيقة.

ومع أنني ارتعبت للهول الطارئ إلا أنني مكثت برهة طويلة وأنا عاجز عن فعل شيء. مدهوشاً بالصدمة، ومخلوع الفؤاد والظنون ترتوي بماء المشاهدة، وخطوات، هل كان خطوي بطيئاً حتى أنني وأنا أتجه إلى الداخل

لم أستطع أن أطوله. كانت النافذة مفتوحة والحجرة القبلية تفيض برائحة بخور، وكان آخر ما رأيته منه هذه الأصابع التي يتقي بها حمله واتزانه. تسرب كما يتسرب الهواء.

وكانت المرأة منطرحة على الفراش أرجاؤها منفكة، ربوتها مغطاة بمحار الخلجان وكانت تتنفس بعمق من تخدر وانتشى، وأخذته سنة من نوم عميق وارتسم فوق الوجه بسمته النادرة الرائعة.

واندك في يدي نصل يلمع. كان لبسمتها إغراء السحر وتمنيت أن أقبض في التو على تلك البسمة النادرة والنصل ينصل الجسد ويصنع برزخاً من الدم.

الرداء

منذ أن تركت البيت الكبير، وأنا مشدود إليها بخيط يشف عن مودة محضة. أهفو إلى ثراء ظلها، ونبض قلبها، ووردة الهوى في وجنتيها. أرتجف حين أتذكر ضربات الجد، وصفعاته المدوية، أستعيد حضنها الوثير، وصدرها الرحب وهي تذمني، وتحميني من سطوة الجد. أتوق للارتواء من زمانها الموفور وأتمنى لو أعود.

ألوذ بها من جدي الذي زرع الخوف في قلوبنا. كانت تتجلى كالشجرة الباسقة، ريانة الطرف، مترعة الثمر، فأزهو بنفسي، وأوقن –في فرحة غامرة– أنني أصبحت ورقة في غصنها الريان.

في مساء ليلة قمرية هلت علينا – بصحبة جدي – أثار جمالها الرائق غيرة الحريم فرحن يبحثن عن معايب كامنة. عاملها الأخوة والأعمام بجفاء بين، بينهما وقعت أسير الرحمة التي تفيض بها. لم تكن صغيرة، ولم تكن كبيرة. احتفظت ببهاء الشباب وسرعان ما تمكنت وأينعت. وراحت ترطب الجفاف، وتوري القلوب العطش، وتخفف من غلواء جدي وقساوته.

ذات يوم دخلت على جدي غرفته العلوية لأعوده من وعكة ألمت به، فلمحت –على غير المألوف– انكسارة تسكن وجهه. حرك عمامته البيضاء بين يديه وأشار إلي وقفت ساكناً رمقني خلسة، وابتسم بسمة

شحيحة، فتقدمت .. مد كفه الضخمة ولامس كتفي فامتننت، كان جدي يهتم بي كأنما يدخرني لأمر أجهله:

- لا تخف عليّ.

أسرعت قائلاً:

- لك الحياة الطويلة.

سافرت عيناه مع ضوء هارب وتمتم:

- لكل بداية نهاية.

اختلست إليه النظر، ولزمت الصمت ساكناً.

- عليك – يا ولدي – أن تستعد.

انحنيت وتساءلت:

- لأي شيء!.

- سأخبرك في حينه. فقط استعد.

وأومأ برأسه فانسحبت مودعاً.

في ليلة عيد الأضحى ألح جدي في إصرار –لم نتعوده منه– على أن الأوان قد حان، وعلي أن أخلع ثوبي وأرتدي الرداء. كانت عيون الأخوة والأعمام ترصد سحنته المريدة. لم أقو على النظر إليه، فانزويت ورنوت إلى

السماء. شدني تراكم النجوم، وشحة الضوء، وحنين مبهر للمرأة الجميلة. لكزني جدي بطرف عصاه يستحثني، فأبان صمتي عن رفض واضح .. وبدت ملامحي كأنما تعتذر، وتطلب العفو.

صرخ جدي صرخة مدوية، هرول الأخوة والأعمام .. وبقيت المرأة الجميلة! كيف دخلت؟ لا أدري .. لكن وجهها المضيء تبدى مع الصرخة فشعرت بأمان حقيقي. خيرني جدي بين الموت والرداء، فاخترت أن أبتعد، حدق في وجهي، واحتد..

- لا تتعجل!.

واستمعت منه إلى تهديد بالطرد ينتهي بنبذ أخف منه الموت.

- أتعصي لي أمراً؟

- أنا لست مؤهلاً له

- سيصنعك الرداء .. وعلى عيني.

- دعني أمضي .. ولا تضغط علي.

- ستمضي، كما مضى أبوك.

ورفع يده الضخمة وهوى بها على صدغي فترنحت.

أسرعت المرأة الجميلة، واحتضنتني، وأخذتني بعيداً، وطيبت خاطري وخففت عني. ارتجفت –غضباً– فهدهدتني حتى سكنت بين ذراعيها

كالوليد .. ربتت على رأسي في حنو متدفق. رأيت أن أنفك من ذراعيها فزمتني .. مشت أصابعها – في رهافة– على جلد رقبتي وانسلت حتى نتوء الظهر وزملتني .. غشيتني السكينة.

رفعت رأسي أنظر إليها ممتناً، فشملني – من عينيها– نور متألق يفيض برحمة بادية، فعدت ألبد في حضنها الدافئ .. ومددت ذراعي أحيطها .. كنت أخاف أن تضيع مني فشددت عليها.

وحين أفقت من سكينتي وجدته أمامنا .. وجهه كلحاء شجرة ناشفة .. اجتاحني الهول، وهوى القلب وتشقق الجدار خلفي، وأحسست بنظراته المسنونة تخترقني فلبدت في حضنها.

لم تستطع جدتي لأبي أن تقاومه طويلاً فماتت مقهورة منه .. اخترقها كثيراً.. جاء لها بنساء كثيرات .. ولم يكن يفرط فيها أبداً. لكن موقفه مع ابنه الوسيط أسرع بحتفها .. أصر أبي –المتعلم الوحيد في البيت الكبير– أن يخرج إلى المدينة، ويترك البيت .. ويسعى إلى مكان فسيح يجد فيه خلاصاً من قبضة الجد، وعسفه الشديد. كان الأعمام يتولون أمور البيت .. الكبير يشرف على الأرض ويرهق الفلاحين المستأجرين، وراح الباقي يتابعون حالات الأتباع ومهمات الأمن، وتنفيذ أوامر الجد .. وظل أبي حريصاً على هدفه أن يتعلم ويهجر البيت.

آثر جدي أبي .. حين آنس فيه قدرة على التأثير وصيد القلوب .. وألقى بالأمر.

- لا تبرح البيت .. إني أدخرك لأمر جلل.

فر أبي من أمامه فسحبته جدتي، وزملته، كما تزملني المرأة الجميلة، حذرته أن يرفض، وخوفته من عواقب العصيان وحرمانه من رؤيتي. وفعلها أبي.

في صبيحة يوم خريفي علم الجد بفرار أبي. أرسل وراءه نفراً يتتبعون أثره .. ثم يئس .. تنبهت جدتي لأبي – فيما بعد – أن جدي كثيراً ما يتأملني مثلما كان يفعل مع أبي. وإنه ربما يوقعني في تجربة ما وحذرتني من مواجهته أو التمرد عليه.

- هرب أبوك وترك لي حسرة في القلب.

- لم ينفع أبي علمه الذي حصله.

- من يفاعته وهو يرنو إلى بعيد

أخذتني جدتي بين يديها، وبدا وجهها المغضن خميلة مختلطة، قربتني إليها فأحسست أنني أجوس بين أخاديد الخميلة وتعجبت كيف عاشت جدتي كل هذا الزمان، وهي محاطة بألم دائم!.

- لا تعجل بموتي.

هذا الألم الدائم لم يأت من النسوة اللائي احتللن الفراش، وإنما جاء من توقعها بمصيبة ما، كل يوم يمر على خير، تلزم غرفتها وتبتهل إلى الله شاكرة ممتنة. وها هو أبي قد رسخ الألم، وحقق الهاجس وكنت ألاحظ على

جدتي –منذ أن قدمت المرأة الجميلة– قلقاً يشي بخوف يكاد يحتويها. لم تكن تقابلها، ولو صدفة، إلا تمعنت فيها، وتملت ملامحها، وغاصت في عينيها، لا يفوتها هذا القوام المشدود، ولا الصدر الرحب الذي تتميز به المرأة الجميلة، ولا لهفة الجد عليها. تضغط جدتي على يدي:

- لا تغتر بتوددها إليك.

وأضحك. وأمسح رأس جدتي، وأقبلها.

- قلبها أبيض كالحليب. أنت تغارين يا جدتي.

وتهتز، وتنهرني وألمح رعشة خفيفة على الشفتين، ونظرة ساهمة:

- كبرنا على ذلك.

وتسيل عيناها، وأسرع إليها أهدهدها، وتتمتم في ارتجاف:

- أنت تذكرها بأبيك وأنا أخشى عليك.

ها أنا ذا بين يدي المرأة الجميلة أتقي بها نظرات الجد. لم يعد لي غيرها تهتم بي، وتأنس لي. ملأت فراغ جدتي بعد رحيلها، فالتصقت بها، لم أعرف من النساء سوى جدتي، والمرأة الجميلة. كان البيت الكبير يمتلئ بزوجات الأعمام والبنات الصغار، وكنت أشعر بوحدة قاتلة وسط هذا الزحام. لم يكن غيرها – جدتي لأبي– تدخلني قلبها وتغلق عليه. حتى جاءت المرأة الجميلة فزاحمتها. أتقي بها نظرات الجد، وعنفه الذي لا يكف.

لم أنس نظرته الحادة التي صوبها إلى المرأة الجميلة وأنا بين يديها، ألوذ بصدرها الرحب الدافئ وأنا أتوقع منه غدراً وشيكاً تذكرت جدتي وهي تحذرني من تمردي عليه، ومواجهته، فلبدت في صدر المرأة الجميلة وأحطتها بكلي، وهي ترتمي علي حتى تكاد تدخلني إليها.

بصق جدي، فلامس الرذاذ وجهي. مدت كفها الناعم ومسحته. كنت أدفع يدها، حتى يرى جدي أني أدفع يدها حتى لا تلامسني وتمسح الرذاذ صرخ جدي، صرخة شببت لها:

- أخرج من البيت ولا تعد إليه.

واتجه إلى المرأة الجميلة التي لم ينطبق لها جفن:

- أما أنت فلي معك شأن آخر.

كوم جدي ذيل جلبابه وتخطانا، أدار رأسه وسبنا:

- ماذا أبقيتم للكلاب!

لملمت المرأة الجميلة وشاحها وتمتمت:

- جدك كلب كبير.

أدركت أن بلاهة غطت وجهي، ودهشة عريضة. بحجم الجد تقف بيننا فأسرعت قائلة:

- لا تندهش كأنك لا تعلم!

عادت فلملمت وشاحها وتمتمت:

- رآني فوقعت في قلبه.

قلت في تودد:

- جدي يحب النساء.

زغدتني في كتفي:

- ولوهلة لمحت غلاً يطل من العينين، وتعجبت أن تعرف المرأة الجميلة، الغل كما عرفته جدتي، وزوجات أعمامي.

- جدي يطمع فيما عند الغير.

كان يجب – في تلك اللحظة – أن أتريث قليلاً، لكنني أسرعت قائلاً:

- هل أخذك من أحد؟ حبيب، أو..

لزمت الصمت فتابعت:

- دون إرادة منك.

- إذا أراد فلا إرادة لأحد.

- ألم يعترض أهلك؟

لوحت بيدها كأنما تهش ذباباً يطن، وامتعض وجهها حتى كدت أحصي تجاعيده.

- إنهم يباركونه.

- وحبيبك .. ألم يفعل شيئاً؟

زفرت، فشعرت بنفسها ساخناً، وطلت حسرة عميقة أرعشت وجهها وأرعبتني. لم أرها يوماً في مثل هذا الحزن. جسدها المشدود ينحني، وتلوح طياته كأخاديد معتمة. أين البسمة الرائعة، ورحابة الصدر ودفئه، ولمسة الرحمة في كفها!! ما الذي جعلها فجأة تكاد تنكفئ على نفسها، وتتسرب إلى داخلها، وتهيم! وتنتفض المرأة الجميلة، فأشعر بألم يعتصرني، وأرتعب من أن تحترق الخميلة، ما هذا.. الذي ينغصها فلا تقوى عليه!!.

رششت عليها عطراً تحبه، رذاذ رذاذ الليمون، برقت عيناها وحدقت في. همست متوددا:

- أكنت تحبينه إلى هذه الدرجة؟

تضع وجهي بين كفيها وتتملاني أغضب لضعفها فأحتد.

- من يفرط فيك لا يستحقك.

تمهلني قليلاً، حتى أهدأ. وتضحك ضحكة رائعة، وأتعجب من المرأة التي تظل عالقة بحب من لا يستحق، وأكاد أنهرها

- تضحكين كأنما الأمر لا يعنيك.

وارتعشت شفتاها:

- ليته بقى ولم يفر إلى المدينة.

- إنه يتسم بالخسة والدناءة.

طيب خاطري، وفردت وشاحها وطيرته في الهواء راح الوشاح يتلوى حتى حط على رأسي وغيب ناظري، وكانت تميل علي في رهافة حس نادر وتطويه بين يديها، وتتمعن في وجهي وتداعب أنفي، تتكئ على فخذها فيتجسم الجسد، ينفتح الفم دهشة من هذا التكوين الذي يحتويني ليناً ودافئاً. لم أستمتع يوماً بدفء مثله. لم تحضنني امرأة كما تفعل المرأة الجميلة، ولا أمي نفسها، لأنها ماتت في ولادتي.كان حضن جدتي لأبي بارداً، والجسد الناشف يؤلم ضلوعي فأهرب وأتململ هذا الثراء الذي أعيشه نادر وشحيح، ولبدت حتى لامس الجلد، الجلد. سمعتها تردد في هسيس صوتي لا يبين "كأنك هو" فانتفضت، تشقق الجلد عن الجلد وصحت في غضب:

- لا تشبهيني به. إنه خئون.

كجدتي –قبل أن تموت– تكفكف دمعة الغضب وتقول:

- لا تسبه. فهو أيضاً لم يكن يريد.

- إنه يستحق.

واهتز من الجذور، وبعلو صوتي، وأتصور أن لي حقاً عليها فأقول مؤنباً:

- كيف تدافعين عنه بعد ما تخلى عنك.
- لم يكن أمامه إلا الفرار أو الموت.
- الموت من أجلك حياة.

لا تقس عليه.

تحتجز نفسها بعيداً، تطول المسافة بيني وبينها، ترفع رأسها في علو وملامح الوجه تتصلب وتشتد، تنفرج الشفتان في بطء، ويخرج الكلام كالأسنة.

- كيف لم تفهم حتى هذه اللحظة أنه أبوك.

انغرست قدماي في الأرض كأنما شدتا بالمسامير. يتخلى عني الوعي، وأشعر بدمي يسير بطيئاً في الأوردة، وعيني تكاد ترى على مساحة الأفق أبي الذي يتسحب في غبشة الفجر، لا ليصلي، وإنما ليفر هارباً إلى المدينة ويترك وراءه تلك المرأة الجميلة، ويدعني – في ضعف أليم – لجدتي وحضنها الناشف وجدي وجبروته الذي لا يقاوم إلا بالموت.

رنوت إليها شدت عيني فظللت أرنو إليها كيف للمرأة الجميلة أن تعرش على البيت، وتصنع الخميلة، وتتغنى بحبيب غادر وتتسبب في طردي

من البيت الكبير. كيف لها أن تصنع ذلك كله ولا تزال تحتفظ برداء قديم وبمودة لا تتعكر وبنظرة ملأى بالحنان!.

وأرنو إليها في عتب المحب، ويأس المريد، وتتصالب أعضائي، وأهوي تحت قدميها، أروح في نشيج طويل، يتخلى عني حيائي فأسب جدي، وجدتي وأعمامي، والمرأة الجميلة والناس جميعاً وأذهب في غياب متقطع وألمحها – في فترات الصحو – تجلس بجانبي، تلازمني، تدلك جسدي المغطى بوشاحها الوردي الذي تسترني به.

العُروج

أتلصص كي أراها في حلقة الذكر منشرحة الصدر فاردة الذراعين، ترفرف بشالها. فتأخذ العيون وتقبض عليها. كان الجسد فائراً، وعباءة الحرير تشير إلى تكوين متناسق. سقط الوشاح الأبيض المطرز بالخرز الملون فلاح الشعر أسود فاحماً. وتأرجحت خصلة متأبية وتبدى الوجه أبيض كالقشدة.

يصلني – خلف الرجال – صوتها منغماً وهادلاً فتتعالى أصوات كالحشرجة، تأخذ معها دفء الحنايا، وتروح تتمايل في خفة، وتتكئ على القلوب، والمنشد يواصل إنشاده في توقيع يأخذ باللب. ويطيل ويلون ويعيد "أتحرقني بالنار يا غاية المنى" وتبتهل الجموع، وتردد والمآقي تترقرق "أنت يا غاية المنى".

ويخترق النداء الزاعق "مدد.. مدد يا عطشى". سكون العيون اللامعة.

وأتلفت مرتجفاً كاد الصوت أن يوقف قلبي. وأراها كعصفور يلتقط الندى ويهش بجناح مرتعش. تنحني، وتمرق، تلمس الرءوس وتبتسم، ترنو إلى المنشد فيتملى، ويتأنى، ويتهيأ ويقول: "كن لي يا مضيء القلب صاحباً...".

ويتداخل الإيقاع في هوس النفوس وينطق شيخ يتكئ على عصاه وعينه معلقة "اسقينا من غيمك المليء".

وتمد يدها، وتفرد الكف، وتلمس الرأس، وتعب في صدرها غيمة من البخور المحترق وتصدح "أرونا يا ماسك الغيم وواهب النعم".

وأراها من وراء حلقة الذكر فأدرك أن ناراً تصطلي بداخلها، وأحس برجفات الأجساد من حولي، وبالعيون الوسنى ويشتد الذكر والمنشد يردد العبارة ويجزئها، ويترنم "يا واهب النعم".

وفي الرجفة الأخيرة تختلط الأبدان وتنحني عليهم ويتطاير الزبد، وتحتوي رعشات القلوب، وتترنح. وكما لو كان الأمر مقصوداً. تمتد الأكف في لهفة حتى أنني مددت يدي دون وعي فاشتبكت بهم.

كان الجسد يستسلم للأيدي التي أخذته في رفق وحنان حتى أجلسته على الحشية المزينة بالحواشي الخضراء في صدر البهو.

وحطت عيني عليها حين انحسر طرف العباءة الفضفاضة عن ساقين مبرومتين ولامعتين حتى كدت أشهق وامتدت يد الشيخ في حدب طاغ وأسدل العباءة كاملة فحكمت الجسد وقيدته.

كنت مغرماً بارتياد حلقات الذكر. تعلم أمي ذلك منذ كانت تصطحبني معها في سهرات الزار يوم أن كان والدي عصياً عليها. وحين علمت بوجود العطشى في البلد خافت علي وتوجست. ولاحظت غيابي كثيراً في ليالي الذكر فاغتم قلبها.

لم أتخلف عن حلقة ذكر تكون فيه العطشى سيدة المكان وقمره. وتقدمت خطوة، فلم أعد أرضى بالصفوف الأخيرة، بل زاحمت وارتكزت في قلب الصف الأول. لم تفلح مدافعات الرجال في أثنائي. واقتربت فرأيتها عن قرب.

تألق صوت المنشد ورجع، ووقعت الأقدام في لمسات رهيفة، واهتزت سمرات الحصير الملون. وهلت "العطشى" كبدر يتبدى، وتمايلت في خفة غصن حركته نسمة رخية ورمقتني فاختلجت. وقعت عيني في قلب العين، فانتفض القلب واتقد. لم أقو على منع عيني فاصطحبتها معها. وانتفضت، ودارت، وحجلت، ولهث الجسد ونضوت عني جلد خوفي حين جذبتني إلى صحن البهو، ومرتع الحلبة.

تشتبك أصابعي وأدور. كانت تقودني في حركة مرسومة وئيدة اللمس. ثم اشتعل الدبيب فأسرعنا. وأنا أدور في مدارها خطفت عيني بريقاً موءوداً، وانحسار رعشة في الشفاه وتجذبني في قوة كأنما تئد نظرتي وتسقط وننكفئ.

أجدني محاصراً بأجساد ساخنة كانت العطشى تنهد علي وتدك جسدي دكاً، وترتعش، وتغيب. وكانت الأيدي تتخاطفني، تكاد تمزقني، وتمزع ثوبي لقد اقتربت، واستنشقت العبق، وانتسبت إلى الطريق. ولم تفارق العيون بدون العطشى، وما كفت الألسنة عن الهمهمة. وما توقفت عن الذهول. وغشيتنا خفة ساكنة أحبكت رهافتها الأبدان من أدرانها المعتمة. ويلم الرجال أنفسهم وينصرفون وأتلكأ. ما الذي جعلني أبطئ في

الرحيل؟ والليل جمع عتمته وأسلمها لغبشة ضوئية قادمة، وأمي حتماً – حتماً– يعضها قلبها وتخلف –في إذعان– أن الليلة آخر الليالي. وكل ليلة تحلف.

ما الذي جعلني أنزوي حتى صرت آخر الرجال؟ وحين لم يكن مفر، وأربت خطوتي فاستبقتني آمرة"

- انتظر.

وفاض داخلي بالفرح، وشدني حبل موصول لا يرى واسترخت أعصابي تنتظر الإشارة. ونهضت، وأسدلت سترها وطوقتني بوشاحها وجذبتني فابتسمت. شدتني فضحكت، ثم أفلتت الوشاح وتنهدت "يا ماسك الغيم".

عجزت عن التصرف فوقفت، وخجلت. غطتني السعادة غشاني الفرح. ما الذي يحدث لي؟ هل ارتقيت درجة، وصعدت عارجاً إلى القلب، وانتظرت.

أخشى أن أبادر فأخطئ ولكنها – في هلة مشرقة– أقبلت علي، وضربت صدري بكفين مخضبين وقالت في جذل:

- المرء مع من يحب.

وتضاحكت فأشرف ليل البهو وهمست:

- لا تنسني.

وتبتسم، وتحبك الوشاح على الرأس، ويختفي شعرها الفاحم الأثيث، وتقبض على الوجه عبسة وضيئة، وتدفعني إلى الباب في همس كالترنم:

- دعني أستعد للفجر.

لم تفارقني رجفة تشملني حتى وصلت. كانت أمي تقف خلف الباب تنتظرني. أحسست بي ففتحت الباب قبل أن أدقه. كانت أسناني تصطك فزملتني، وسحبتني إلى الداخل. طرحتني على اللحاف ومسدتني. استعاذت من الشيطان وقرأت في تمتمة سريعة الصمدية والمعوذتين، ورقتني باسم الله الأعظم من كل عين رأتني ولم تسم على النبي.

لم تكن أمي تثق في المرأة. إذ كيف تكون صالحة تقية وهي ترتاد حلقات الذكر وتندس بين الرجال، وتخوض في أمور غريبة. وتصيح أمي وهي تدعك جسدي في غضب:

- عاقبها الله بالبلاء والمحن كما عاقبتني.

وأهمس في خفوت:

- إنها لا تعرفك.

وتدس يدها في صدري وتدعك:

- خير لها أن تتزوج بدلاً من خطفها الرجال واحتكاكهم بها.

وأصيد في عيني أمي تهويمة وأقول:

- حلقة الذكر كحلقة الزار.

تتحسر أمي على أيام زمان، حين كان الزار خالصاً للنساء، ولا تقيمه إلا كودية محترمة.

كانت أمي تعشق الزار وتسعى إليه ولو كان في بلدة مجاورة. لا أذكر أنها تخلت عن عاداتها إلا بعد طلقتها الثانية. خشيت طلاقاً بائناً فحبست رغبتها بين ضلوعها واستسلمت لأبي الذي مات بحسرته –كما تقول جدتي لأبي– من أمي التي لا تفترق كثيراً عن كيس القطن.

وضعت فوق شفتي بسمة واهنة وقلت:

- ليتك ترينها.

ردت في سخرية مباغتة:

- وماذا فيها غير طمعها فيما لا تملك!

تطلعت إلى وجه أمي الضامر وقلت:

- وجه كالبدر.

اصطدت رعشة على الوجه وهي تدير رأسها:

- قبح الله وجهها.

وأسرعت في صوت حاد وهي تطوح بيدها غضباً:

- كيف ترتاد مجالس الرجال، وتشرب القرفة المصنوعة من خضب الخالص والزنجبيل الحراق.

ومشت أمي بأصابعها على صدرها وتمتمت في خجل مرصود:

- كان أبوك يحبه في ليالي الشتاء!

حين سألت عنها قالوا تجالس القمر. أعرف أنها تفارق الأتباع وتختلي أواسط كل شهر عربي. وتنفرد فلا تسمع لأحد بصحبتها. أخبروني أنني يمكن أن أراها عن بعد. ولكن علي أن أحذر وألا أقترب إلا إذا سمحت. أمالوا رءوسهم وهم يهمسون:

- اختارتك أنت.

حملت التحذير معي ووعيته وأنا أمضي إلى الطرف الجنوبي للمقابر. خضت في نبات الحلفا، ووقفت بعيداً فوق قمة مقبرة حجرية. كان القمر يتهادى ويتبغدد ويسن ضوءه ويخترق، وكان الجسد يتلقى وينفتح.

رأيتها كالمهرة وتعجبت كيف لها كل هذه الوفرة في الجهد؟ كانت تطوف بالقبور وتضع أذنها عند المداخل وتبتهل: الرحمة وظلت تلاصق قبراً منزوياً تحت أكمة من أشجار الصبار وتبكي تتخفف من دثارها الليلي الخفيف، وتستبقى الدمع في العين، وتقترب تنشق الشفاه عن آهة يفيض صهدها:

- "تحدثوا بصبابتي بين الورى". وأقعت باكية.

بدا لي أنها تنبش بأصابعها فتحت المقبرة وتعول كانت المقبرة خاصة بعائلتي دفن فيها أبي وجدي وأخي الصغير. ما الذي جعلها تقف أمام المقبرة، وتطول وقفتها، وتتحدث هامسة، وتتناجى في ابتهال يتشح بالحزن ويبتل بماء العين.

راح القمر في نوبته يلقي ضوءه وكان مسيل الدمع الحار يعكس الضوء ويكشف الألم.

واقتربت وأصغيت لملمت في سمعي حديثاً عجباً.

أرهقها النشيج، فجلست مقعية، وفردت ذراعيها واتكأت وصاحت:

- فضحتني ثم مضيت.

لم أتوقف عن الكلام. فكثيراً ما كانت تتحدث بكلام مختلط. ولا تزال نبرة صوتها الحزين –الليلة الفائتة– ترن في مسمعي "أخذتني بحبك وهجرتني بوصلك" ولا يزال توقيع المنشد عالقاً وموصولاً ولكنها اللحظة تختلف كانت تتحدث وتحتد كأنما كانت في مواجهة حقيقية مع شخص بعينه. وأنا على أطراف أصابعي أتسحب، تلتقط الأذن أصداء القلب، وأتعجب ساكناً.

طرحت "العطشى" نفسها في الفراغ، ودارت حول نفسها وهدجت:

- في ليلة التمام فعلت بي ما فعلت.

فكت غدائرها، وأطبقت على صدرها فارتج مكتنزاً:

- وعدتني لكنك أخلفت أخذت روحي وجسمي وتخليت ولجت، ودخلت، وما أبقيت.

وخبطت بقدمها فارتج القبر، ولاح الساق مشدوداً:

- أكان يجب أن تموت ليلتها.

وحبت إليه واقتربت. أسندت رأسها على حافة المدخل واستكانت، نترت جسدها كالمهرة النافرة فتجسدت أملاكها. ثم انحنت، لامس الشعر نبات الحلفاء الناجم، ولاح في عيني ظهرها المنحني جسراً بلون المرمر، وشهقت، ولم أقو على الوقوف فأنهد جسمي وسقطت. تكومت أعضائي وقلبي لا يكف عن وجيبه الصاخب حتى كاد يفضحني. والكون كله تقاطر إليها وانتظر، وأنا أرى الشهد يترقرق ويفيض. وراح السكون يفرش ملاءته وينتظر. وكفت الجنادب الملحة عن صريرها الليلي.

غافلني صوتها حزيناً، مغبشاً، ومتهدجاً وبدت كما لو كانت تستجدي:

- تعجلت الرحيل ولم تنتظر.

دارت حول نفسها وتلفعت بالضوء وبكت. ظلت تبكي حتى بكيت، وكنت قبل أن تبكي أبكي. وتألمت. كيف يطيق هذا الجسد الناعم

حملاً ثقيلاً كهذا الحمل. وتخلت عن سكونها، ورمحت، وصعدت، ورقصت، تطلعت إلى السماء، وانتظرت.

فردت جدائلها بين أصابعها وتطلعت إليه.

- لبست الوشاح وسلكت الطريق فضحني كان يجب أن أفعل ما أفعل. تواطأت معه حين أرسلت ضوءك سقطنا.

انتفضت وصرخت، ولوحت بيدها إلى وجه القمر المنتظر:

- تواطأت معه وفضحتني.

حجلت في إيقاع متراخ ثم انزوت في حنية مرتفعة ولاحت تلمع في الضوء، ينعكس النور على جلدها، ويفيض الجسم بنور يشع فرحاً. واغتسلت بضوء القمر. كانت تجمع الضوء في كفيها وتدلك الجسد، وكانت المسام تتفتح وترتعش. وتتلقفه وتمتصه في لهفة وتبتهج ثم راحت في غنوة طويلة.

ومع أنني مضيت إليها في خفة، إلا أنني غضضت بصري إغفاء حقيقياً، وطرحت عليها عباءتها.

أصبح الأمر طقساً مرعباً، في ليلة التمام حين يحتد القمر ناضجاً تتعرى عروس الليل كحورية خرجت من محارها المعتم. ولم يعد الموقف غريباً علي.

كانت تطلب مني أن أنضي عنها أشيائها لتستقبل القمر. وكنت أغمض العين مستسلماً لمداعبات تفيض بالبهجة. وكانت تغني في بحة "حبك الآن بغيتي" وقبل أن تبدأ طقسها تطل في وجهي وتهمس:

- كيف عدت؟

تمعن النظر، وتظل تحضن وجهي. ثم تضمني إلى صدرها، وتسحبني بيدها حتى نقف أمام شجر الصبار ويتهدج صوتها:

- أحمد الله أنك عدت.

وترمي بالوشاح في خفقة من الفرح، وتتناجى:

- الآن سترتني.

وأنتشي سعادة، فلقد أصبحت ستراً لها، هذا الذي من أجله سهر الرجال الليالي الطوال وجهزوا الرحال.

شقيت أمي بإخلاصي، وطال الخلاف:

- من يزرع الأرض وأنت تقضي وقتك وراءها من بيت لبيت.

- إنني سترها.

- فضح الله سرها، وهتك سترها.

- لا تغضبي. إنه القلب يا أمي. وما عدت أحكمه.

- أوجع الله قلبها. كما أوجعتني مرتين.

- كيف تعاودين العطشى

- لن أتركك تضيع من يدي سأذهب إلى الشيخ ليعمل لك حجاباً.

- وماذا يفعل الحجاب حين ينكشف الحجاب.

وارتبط مقامي بين صحبة الطريق بأنني رديفها ووسادة رأسها وباعث بهجتها.

دققت الباب في وهن. كيف سمعت أمي ما لا يسمع؟. كم تمنت أن أعود لأروي الأرض العطشى، وأبذر الحب في الشقوق الجافة، وأطعم البطون الجائعة. وتصيح: نحن في حاجة إليك. ولكنها أيضاً في حاجة إلي. ما أن تحرك المزلاج حتى تكومت. صرخت أمي فهب أخوتي النائمون وخالي المقيم. حملني خالي، ومضوا بي إلى الحجرة الخلفية. دثروني بالبطاطين والأحرمة، واصطليت بالنار، وشربت سمناً ساخناً.

قبعت أمي بجواري، يقبض الحزن ملامحها وتبتهل:

- لتكن الليلة آخر عهده بها.

وراحت أمي تجفف العرق. وكان يصلها حديثها متقطعاً:

- تركتك كالمصاصة القصب.

راح النوم يطل في العين في تقطع واشتبك قلبي معها.

كنت أرتجف وأنا أرى الضوء يتجسد، درجة فدرجة. لاحت الخيوط موصولة وبدا القمر كأنما يرسل –في قوة– درجات سلمه. نهضت منومة بعد همود من رقصة طويلة متعبة.رمقتني ووقفت. يتعجلها الخيط المتجسد، وأدعوها كي نتم طقسنا وألقت محبتها، وغطى هواها بصراً زائغاً وصرخت –لا تتركيني– واهتز الخيط – الضوء– الدرجة والتفتت إلي، لمت غدائرها، وتوشحت. كانت تمضي إليه وصرخت حتى ارتج الكون، وارتعشت تلال العشب "خذيني معك". وجاءني صوتها يضوي ويتلألأ "تحدثوا بصبابتي بين الورى".

ألقت أمي بجسدها كله علي فنبهتني وتعوذت. نادت على خالي أن يفتح المصحف ويقرأ سورة "الجن"، ويتبعها "بياسين". الولد سيضيع منا. إشهل واقرأ وحين بدأ خالي يقرأ أخذني النوم متقطعاً.

كانت تخلع نفسها وتعرج، وتميل برأسها وترمقني كانت تعلم أنني أنتظر لكنها وضعت قدمها على سلم القمر وخطت في عروجها خطوة واثقة وابتسمت طلت بسمتها عالقة بالضوء كأنما تعتذر وحين خطت ثانية باغتني العمر وطوى سلمه.

انتزاع الوشم

أفاق من راحة مختلسة حين راح النمل يتحسس وجهه آلمه أن النمل الذي صنع له جدائله لم يعد يطاوعه هذه الأيام، وأنه كثيراً ما يلبد فوق الجلد كأنما يذكره بعزلته التي طالت، ولصوته بنخلته الأثيرة التي سحبت منه عمراً وقلباً، وأن أنسه بالنجوم والقمر لا يوصد باباً للعودة ولا يحجب الغد الآتي فيصبح وجهه ودلف برأسه بين السعف الكثيف وأطل. لاحق الهواء، والشمس، والعصافير، والأجنحة، وقضبان القطار.

شدت عينيه امرأة منطرحة على الظهر أحاطنها النساء في عويل كالندب، ومضى الرجال يتلقون منها أشكالاً كالمسوخ يدسونها في التراب. كانت الغربان تقفز، والحدات تتربص لحظة مباغتة. ارتعب ولم يصدق ما يرى. طوح برأسه، ودعك عينيه، وحدق في إمعان. كان جسد المرأة يتمدد ويملأ المكان ويؤكد وجوده، وكان الرجال يتوارون أحياناً ولم تكف الغربان عن تحفزها وترقبها.

في لمحة عين خاطفة لمحت. من أتى به؟. كيف عرف الطريق، ومن دله عليه؟.

كان الحاوي يعتلي تلاً قريباً من جسد المرأة. كشف عن ساقيه، ومد ذراعيه في الفراغ. لاحت اليمنى قابضة على حجر أملس، والأخرى تتحسس بيضة كالأفق. تحرك الكفان، وتلاعبت الأصابع، وتصاحب الحجر والبيضة تلامساً، تفارقاً، تمازجاً.

وانخلعت النفوس من همها وتردد صوته زاعقاً:

- جاءكم المخلص فانتهزوا الفرصة استطال في وقفته حتى بدا طويلاً مبروماً كالحبل وقال في حدة:

- هرولوا إلي فأنتم على موعد مع القدر.

ظلت النفوس مكتومة بهمها فواصل صياحه وأرسل الحجر بين أصابعه:

- الحل وحده لدي تدفع قرشاً فيأخذك البساط إلى الغد وتدفع مليماً فتصبح كعنترة.

رمى بصره على الجمع، وأخرج من صدره زفيراً ممطوطاً فلاح مدكوكاً كالوتد. لاحقته العيون فترنم صادحاً:

- أنا الحاوي والحاوي أنا.

نسى الجميع جسد المرأة فتقدمت الحدآت واختطفت الأحشاء والعيون. وظل الحاوي يردد:

- انطلقوا واركبوا البساط. وخيل إليه أن العيون الهامدة باحت بما في القلوب فهبط نازلاً في ثقة ومشى بين الناس يردد:

- من يريد عنترة بمليم. من يشتري "الهلالي" بنكلة.

ظل الناس على ما هم فيه، ساكتين، مندهشين، مهمومين بجسد المرأة. زعق فيهم صائحاً:

- تنبهوا. هؤلاء لم يعد لهم سعر. نحن في زمن الألوان فلا تتركوا الزمن يتخطاكم. انفتحوا يرحمكم الله.

تحرك في زهو، واقترب من الجسد فجفلت الحدآة وتربص الغراب قفز على الجسد الهامد سبع قفزات وكان الحجر والبيضة يشاركانه قفزه المتئد الرزين.

في القفزة الأولى قال:

- أمثال عنترة يجلبون الهم ويورثون الحسرة الدائمة.

وفي الثانية ردد في حزن:

- انظروا ما حدث للمرأة واحكموا.

في الثالثة ترنم:

- البساط الملون يجلب الحظ.

وفي الرابعة زها قائلاً:

- أنا وعد القدر وبشارته ورجله المنذور لكم.

وفي الخامسة ابتسم حياء:

- افتحوا القلوب وتلقوا الوعد.

في السادسة قفز قفزة عالية واستوى بجانب رأس المرأة. كسا وجهه بحزن مدروس وتبدى في عيون الناس مهموماً ومحزوناً. شعر بأن عليه أن يبقى في الأحداث هذا الشعور فطرز حديثه بوشاح الرحمة.

- استروها ستركم الله في الدنيا والآخرة.

وفي القفزة السابعة مد يده وغاص بها في جوف المرأة وتمتم:

- املئوا الفراغ، وسدوا منافذ الدم، وتمسكوا بالأمل.

وقبل أن يتلاشى صدى عبارته الأخيرة كان قد عاد إلى حركاته المدهشة. لم تستطع العيون أن تحدد في حركة الذراعين موضع الحجر والبيضة. تبادل كلاهما الموقع والشكل وظلت العيون مسلوبة. وظل يقفز بين الناس مرددا:

- من يرد اليمنى يصطف على اليمين ومن يطمع في اليسرى يقف عند الأطراف هناك.

كان الناس لا يزالون على دهشتهم تركوا الجسد قليلاً ولم يتقدموا، وأتت الغربان فرصة نادرة فانفضت تنقر القلب.

أرعبه صوت الحاوي وهو يزين الغد بلون الأفق الجميل، وكفه اليمنى تلوح بقوة قابضة على البيضة وتجسم على بطن الذراع وشم مرسوم بدقة فتذكر أنه كثيراً ما شاهد الحاوي كلما امتد به الطريق واختلط بالناس. كان لونه شارة عليه، ثم أصبح راية يتخذها الأتباع دليلاً. ولكنه وصل إليه هذا الحاوي الذي لا يستعصي عليه شيء. وصل إليه في عزلته منذ أن دس مضغة القلب أسفل النخلة وارتضاها مقاماً.

طفر الغيظ في العروق، واحتواه الألم، وتدفق من شريانه صهد ساخن يحرقه وهو يراه. يحذر الناس، ثم يراه منزرعاً يطوق عليه الأفق، ويسد عليه الدروب، ويخدش سكون العزلة. هتف –من وراء السعف– زاعقاً بكل ما فيه "سأقتلك يوماً بكلمة مني". جاب الصوت الآفاق فاهتزت النخلة وتدلت العراجين، وفاز القلب فسقط وارتطم بالأرض.

وأخذه هاجس أن يكون الأوان قد حان ليواجه الأسود على سدرته، ويثأر من الأتباع الحيتان الذين نفوه إلى البرية البعيدة حيث الأحراش وسعف النخيل. ترى أجاء الوقت ليقطع العزلة ويمشي بين الناس يذكرهم بالحق الذي ضاع، والثأر الذي طال!. لم يعد أمامه بعد أن ظهر له الحاوي في مقامه البعيد إلا أن يخلع الجلباب ويعود إلى الناس يذكرهم بالحلم الذي وئد، والفساد الذي استشرى، والبراءة المغتالة، والمرأة التي راحت، والبنت التي ضاعت.. و.. و.. وأدرك أن الأوان قد حان وأن الزيارة قد وجبت لصاحب المقام الرفيع.

واتته الخفة فانطلق إلى البيت العالي.كان المدخل غارقاً في غبشة رمادية. جابهته رائحة عطنة مخلوطة بدخان العود. صعد السلم واتجه يميناً ثم دلف إلى البهو الواسع. رآه جالساً على بساط أخضر، ومتكئاً على وسادة زرقاء. أيقن أنه المطلوب، وأنه الموعود باللقاء. أشار إليه فمضى. وقف فأومأ إليه أن يجلس، فجلس قاعداً. دارت فناجين القرفة الحارقة وفاجأه قائلاً:

- أتيت قبل الموعد.

أسرع في ارتباك لم تخطئه عين الرجل:

- أكان يجب أن أتأخر!

- كل شيء بأوان.

قرر أن يغادر المكان بعد أن يحتسي القرفة. بعد رشفة واحدة شعر بارتعاشات صوت يتسرب إلى مسمعه. لا تنس داخلك. تلفت فلم يجد أحداً بجواره. احتار خائفاً أن يكون الصوت وصل إلى غيره. أدار رأسه، وأطال رقبته. فجاءه الصوت ودوداً على غير توقع:

- لم تنضج الثمرة بعد.

بدا له أن ملامحه تشي بما في داخله:

- كيف تعطيك الثمرة حلاوتها قبل نضجها!

قرب إليه وعاء البخور وطير الدخان نحوه:

- ألا تعلم أن في النضج النهاية!

تبسم فانعقد الدخان، وذابت الروائح، وانتبه الجمع.

- استشر داخلك.

تراقص دخان العود وانعقد كالغيم مخفياً وجهه للحظة:

- تلك دائرة مكتملة. كالموجة تموت عند الشاطئ.

تريث الرجل المهيب قليلاً فوقفت عيناه فوق شفتيه:

- إنه لا يكف عن الحركة، ولا يقف عند حد، طالت فترته وأنت المقصود لذلك.

راد أن يحدد المعنى ويستكشف الطريق ولكنه أشاح بوجهه واحتسى قرفته وطير الدخان. نهض من مجلسه حائراً. لعله يدرك المقصود. ولكن متى وكيف انسحب وهو يحدث نفسه بأنه لم ينل شيئاً ذا بال. وأن العودة محكومة برضاه وقصده. واجه الغبشة من جديد، وقبل أن تطأ قدماه سلم الخروج فوجئ بيد تسحبه. وانفتح الباب عن بهو ضيق يضوى بالثريات. ورآه يتصدر البهو. أدهشه أن يتواجد في مكانين معاً. وتساءل ما الذي جعله يرفضني ويطلبني؟.

وابتسم له الرجل المهيب. أشعلت البسمة النار في جسده واقترب. ظن أنه يمكن أن يحتضنه، أو يقبله، أو يتملى منه ويملأ العين. فتقدم

فامتدت اليد التي قادته وأبقت فاصلاً بينه وبين الرجل المهيب بمقدار قامة إنسان.

رمقه في خلسة وقال في تهدج:

- تكلم.

تلفت يميناً وشمالاً ونظر إلى السقف وقال:

- خذ بيدي.

أشار إلى تابع، فحمل المبخرة ودار في البهو:

- هل أثر فيك فقد الحبيب؟

خرج من داخله تنهيدة حارقة:

- تأثير يفوق الحد.

أزاح كم جلبابه فبدا ذراعه أملس ناعماً:

- حدثني بالأمر.

أفاض في حديثه حتى كادت الأعضاء تتساقط ألماً، وعجز عن دفع البكاء فبكى.

استند إلى المقعد وطوى فخذه وقال في تمهل:

اغتصبوها دهسوا البطن وانتهكوا المحرم وراحت وراحت المضغة الصغيرة.

امتلأ البهو بالأصوات، فرفع رأسه فهاله أن يرى الأضواء مجسمة بشكل الطيور وأجنحة العصافير الوليدة تعزف أنغاماً تهز القلوب وأعاده إلى نفسه الصوت الرخيم والذي بدا كأنه موجة رخية تتهادى مع رفرفة الطيور.

- أغرب الغرباء من كان غريباً في قومه.

ومشت الأصابع على اللحية وترقرقت العين بنظر حاد وقال في همس مقتدر:

- لا مفر من الهجوم كثرت الأقنعة وآن كشفها.

وارتكن الشيخ المهيب على وسادته الزرقاء، ومد ساقيه. وأشار إليه أن يقترب.

ومد يده، وأبقى يده في حضانة اليد الرخية وشعر بضغطة، وضغطتين وجاءه صوته حاداً:

- هاجم، فأنت المنذور للأمر الجلل، أثأر لعرضك أولاً.

وابتسم له كانت البسمة مسكرة ونافذة:

- أنت قادر على إسقاطه.

أسرع في وجل حقيقي:

- بمفردي.

فأسرع الشيخ في حسم:

- لا تنس أننا نحرسك دون أن تدري.
- كيف يتم الأمر؟
- ضع الشارة أولاً ثم ترصده واقتحم.
- كلي استعداد.

أشار إلى اليد حتى أدخلته وقال:

- خذه

قاده إلى مكان ضيق ومعتم ونطق في حدة:

- مد ذراعك.

كان الصوت مقذوفاً بحدة، وبدت السحنة على شحة الضوء مقبضة، والشفة مزمومة، والعين تسرق كأنما تدفع غلاً يرزح على النفس. لم يقف أمام الأمر كثيراً. ولم يتردد، فكثيراً ما امتدت الأذرع وانطوت، وهو الآن في موقف التأهيل يكشف عن ذراع قوية يتلقى عليها شارة النجاة وردد في رقابة راجفة! الأيسر،! وجاءه الأمر:

- الأيمن.

وبدأت الإبر تنغرز في بطن الذراع وكانت العين تقيس درجة التحمل مالت خطوط الوشم ذي اللون والدرجة حتى استقرت على الأسود المزرق وتبدي في النهاية فارساً وجواداً، وعصفورة ذكرته العصفورة برفيف الأجنحة في البهو.

لا ح السيف مثلوماً، قاوم الجلد شفرة السيف وكف عن النزف.

وتمعن في الوشم قبل أن ينطلق وصاح في دهشة:

- سبحان من يحيي الموات.

مضى إلى محطة القطار. وسوف ينطلق منها عابراً كل المحطات. سيطوف كل الأرجاء يترصده حيثما كان. وسيمشي بين الناس محدثاً وكاشفاً عن طبائع التحول والتقمص سيجتاز الجلد إلى القلب ويهز الكوامن الساكنة. وسيلتف حوله ويدميه. وسيسقط سقطة مروعة يتحدث عنها الناس طويلاً ويتفرق دمه بلا أمل في دية أو تعويض وتمهل قليلاً وهو يخطو خطوته الأولى وابتسم هامساً "أنهم يحيطونني بعيونهم".

شاهد التمثال الضخم قريباً من المدخل، كان الجميع يسحبون عيونهم. عليه اتقاء لحركة السير المتصادم. وبدا له على ضخامته ضئيلاً ساهم النظرة، متهدل الأكتاف، تنطلق ملامحه بتبرم واضح. هاجسه حنين إلى القديم حين كان الملك ملكاً!. ورنا إلى الهيكل الضخم وشاركه ضيقه فهو وإن كان حجراً إلا أنه فرعون.

اقترب منه، سعى حثيثاً إلى أن يضع يده على كتفه فوضعها. ساخت اليد في الحجر فتراجع مبهوتاً. حدق فيه فوجده كمن يفتح جفنيه بعد إغفاءة، لمح ارتعاشة في الشفتين فوضع الأذن لصق الشفة وخرج الصوت يئز كدحرجة الحصى. قلب الأصوات وفك طلسمها وآتاه المعنى فتساءل مندهشاً أكان ينتظره حقاً؟. وحدث نفسه في صوت حاد طال البلاء كل شيء حتى الحجر.

وانطوت له الدرجات. وعبارة الشيخ تخترق مسمعه "امسح البر كله وترصده".

كان القطار ساكناً، فأسرع وحشر نفسه بين المتدافعين. تعلق بعامود الحديد وضمن أن القطار لن يتحرك بدونه وأن الرحلة باتت واجبة. مرق إلى الداخل وألقى بنفسه على المقعد. وضع "الخرج" على فخذيه فقد يمتلئ يوماً، فالوقت وقت البسط، ومن لا يملأ خرجه هذه الأيام فلن يملأ أبد. وارتفق النافذة، وأطل على المكان كانت اللافتات تدعو إلى العطاء طاف ببصره على الجدران وأعمدة النور وتجلت مصر الأصالة والتاريخ. في لافتة غاية في البهاء ولاحت لافتة مسيجة بالأخضر والأسود تدعو إلى البذل من أجل الوفرة. وتعبت عيناه فكف عن التحديق وأسراب الذباب تعف على المكان.

وتناهى إليه صوت يعرفه، استدار بجسده كله غير مصدق كأنما يعفيه من عناء المطاردة، كان يعتلي مقعده ويصيح بالركاب أن يتنبهوا ويدركوا

طبيعة العلاقة بين الحجر والبيضة ها هو يختار مكاناً لم يتوقعه، وفرض عليه المواجهة.

كان الأسود يعتلي المقعد ويواجه الناس، ولاح في فضاء المكان تشكيلات محيرة لحجر يطارد بيضة. كان الركاب يرفعون أذرعتهم في دهشة المستمتع، وبدا كما لو كان لاعباً مجيداً لفن تحريك العرائس. التقط العيون وجمع الأحداق فصاحوا: عاش الأسود. وصرخ البعض في حدة هو الحاوي بذاته وطالبوه بالمزيد فالرحلة ممتدة، والطريق طويل ونسيان التعب مطلوب والتسلية أمر واجب.

رأى انشغالهم بالأسود فأطل من نافذة القطار، لمح الموج يتهادى بالقرب من شاطئ اليم فتعجب أن يظل متموجاً ولم يخرج بعد عن مساره، وأنه مستسلم لا يقوى على الهدير وأن موجه لم يرو عطش القلوب وينفض العروق فكر أن يواجه الأسود بشيء يحاكيه فمادام لا يكف عن التلون فعليه أن يغير طرائقه وأن يواجه الحيل بالمخادعة. وتداعت الأشياء في ذهنه، وتذكر جدائل النمل، واستدعى ذاكرته وما وعت وفتح المداخل والمخارج لم تفته حركة الركاب وهم يدعكون الأذرع والسيقان ويحتاطون في دعك الظهور والبطون.

وكان البعض من النسوة ينظرن يميناً وشمالاً ثم يدعكن الأفخاذ خفية، على حين طوح البعض بالشيلان الرقيقة ومسحن الأعناق والآباط وتبدى الألم على ملامح الصغار وبكى الصغار منهم وكانوا جميعاً كالمسحورين يفعلون ذلك وعيونهم على جراب الرجل وما حوى.

ومل لعبته جمع نمله وأحكم جدائله وغاص في مقعده وأحس أنه بعيد عن هؤلاء المسحورين الذين باعوا ألسنتهم في المديح والتهليل، وتساءل لم لا يدركون الأمر؟ ومتى يضعون من على العيون الغشاوة؟ وكيف يطول القلب في مركزه؟ أخرجه التهليل من شروده فرآه يضيف حركة جديدة يستلب بها العيون، ظهر متطاولاً يطوح بقيود من حديد. وضع القيد حول معصميه ونادى فتاة سمراء جميلة متهدلة الشعر حتى الأكتاف. حين تقدمت لاح الجسد ثريا يتفق عن ملابس ملتصقة ومشدودة. تفرس في الوجه ملياً، وخيل إليه أن العين تشبه العين، وحدة الأنف واحدة، ولابد أنها أخذت منه خفة اليد وخداع البشر، غطى رأسها بمنديل محلى بترتر أحمر وحواف سوداء وزعق صائحاً: ركزوا العيون. تفرس في الوجوه فوجدهم يهلون له مسكت الفتاة بالمفتاح

وصكت القيد في قوة. أغلقت القيود ولوحت بالمفتاح. دار على الركاب مردداً: مطلوب مني أن أتحرر من القيد فرش أصابعه المحتقنة بفعل حبسة القيد وقال: سأحرركم معي أيضاً صفقوا إن أردتم ولكن تنبهوا قفز وانحني وتكوم وتحررت يداه. نطق واحد في غيظ: أعطته الفتاة المفتاح. نزعت الفتاة المنديل فتهدل الشعر. تقدمت فتبدى الجسد ملتصقاً بالثوب، مدت يدها في ثنية الصدر وأخرجت المفتاح، نظروا إلى الموقف وهللوا جميعا.

باغته المشهد فتساءل: لم يلجأ إلى المراوغة وقد اعتلى السدرة؟ وتوجس في الأمر. فلم يعد اليقين محدداً هذه الأيام. اختلطت الوجوه.

ومشى البعض بوجوه البعض الآخر. أراد أن يتيقن من هذا الوجه المطبوع باللون الأسود والذي يتجلى له كلما تواجد مع الناس، ويزاحمه في خلوته، ويخترق حنينه الخاص وهذه الفتاة التي تأخذ من سحنته الحدة، والمراوغة من تكون؟ ونهض من مقعده تجاهه وقبل أن يمضي إليه جاءته دفعة قوية أوقعته، ارتطم بالسيقان، والأقدام، وأدهشه أن يداً لم تمتد إليه وأنه في موقفه بعيد لا يدري به أحد مع أنه في دائرة الرؤية. وشعر بسكون يشمل المكان حتى صوت القطار يكاد ينعدم، تمتم وهو يخلص نفسه من التواءات الأرجل: لا فائدة، كلما جئته هرب وراعه أن يرى وجوه الركاب قد احتواها السكون فجأة، وتهدلت ملامحها واسترخت، وكأنها لم تكن للحظة غارقة في الدهشة والضحك. توقع حركة ما منهم، أو حتى مجرد عتاب لاحتكاكه بالأجساد والأعضاء إلا أنهم لبدوا في مقاعدهم وبدوا كما لو كانوا! يتوقعون شيئاً غريباً جديداً يسليهم في سفرتهم ولاح الأمر ينبئ باستلاب الإرادة.

ومضى إلى مقعده عاجزاً عن فهم الأمر حائراً عن الأفعال التي لا تخلوا من قصد أو إغواء، أو تواطؤ. تمتم متعجباً: كيف لم تواته. "العيون التي تحرسه" لمؤازرته للفتك به!. ولم يخلو القطار وهو يقصد محطات البر كله من العين، والخنجر!! و.. وتوقف القطار فجأة. كانت الوقفة بمثابة اصطدام هائل، أعقبته "فرقعة" مدوية. انفلتت الأعصاب والحناجر والملامح وتدافعت الأجساد نحو الأبواب والنوافذ. ظل قابعاً في مقعده، ينتظر لحظة تواتيه، فلعل إحدى العيون تكون هنا في مكان ما أو ربما تكون وراء الهزة نفسها. كانت الأبواب موصدة، والقطار يئن وعربة الكارو

بحمارها قد تطايرت أشلاء دقيقة، وصاحبها يبكي من شدة النازلة التي ألمت به وغشيت المكان علامات من الحمد والطمأنينة فما الذي يمكن أن يحدث للقطار من أجل عربه كارو! وعادت الأرواح المسروقة من أبدانهم، وتمشت الأصابع والأكف والأيادي وسرت حركة الهمهمة والقطار يستعيد مشواره وينطلق.

وكانت طفلة منفلتة من حضن الأم تعافر في حركة دءوب أن تطل من النافذة، وأن تهبط إلى أسفل، وأن تشاكس الأصابع الممتدة، وأن تضحك، وتعبس وصادت عينه عينيها البريئتين وغاص قلبه وارتجف.

كان في لحظة الصفاء يستند إلى حضنها الدافئ ويطل في العين الرضية، وكانت تعرف من النظرة أنه يحب أن يبوح وكانت تحب أن تسمع البوح، وتسعد به كانت تشعر أنه يحادث داخلها وهو يضع أذنه يتسمع النبض، ويتابع الحركة ويفرش بأصابعه متتبعاً الحركة، وهي تتلقى الخبطة، ولمسة الأصابع في نشوة تحتويها.

ويطل من عينيه وهج الحب ويقول: أريدها بنتاً تأخذ منك العين والشعر والقلب والحكمة وتسافر عيناها في البعيد وتقول: أريده ولداً، تعطيه الجسارة، وتطعمه الحب، والطهارة ويضحكان، وينظران فجأة في مواجهة مشمولة بالحب، وينطقان معاً: لا تحلم لا تحلمي وما الذي يقف أمام الحلم! كان عاجزاً عن الإجابة، فكل ما يراه ويحدث، يولد الحقد ويذهب بالحب بعيداً، ويؤكد أن الغرس الجديد لا يكون في تربة عفنة، ومدنسة. وهذه الطفلة التي يراها أمامه كيف تمضي بها الأيام! تقلص قلبه،

وعضه الخوف وتداعت في القلب نفسه آلام الفراق والموت فامتدت يده إليها وسحبها في هشاشة تسيل من عينيه، وأبصرته الأم فاختطفت الطفلة ودفستها في حجرها وعقدت ذراعيها مع أن عينيه في هذه اللحظة كان يسيل منهما أمان مبلول بدمع سخين.

كانت البنت لحما طرياً، لم يفرح بها، ولم تفرح به

هذا الترصد للزوجة مقصود. كانوا يعرفون كل شيء، الحمل، والترقب، والعناد. يذكر أنه لم يهن أمامهم، ولم يلن. هذا الإغراء بالمركز، والمال والشاطئ وأبوة هادئة لمولود جديد لم يستطع أن يهز موقفه. كان يود لها أن تولد فيدثرها بالطهر ويرضعها لبن الأم النقي، البهي، المدخر. فما فائدة أن تحيا هي ويموت الآخرون؟ لم ينس يوماً أن موقعه – أن ضل – نافذة لفساد كبير فطوى صفحة الإغراء، والتهديد وانتظر اخضرار الأمل وانبثاق الفجر فجره الذي يحمل صيحة البداية، وبسمة الغد وغده الذي يتمنى أن يرق فيطول غيره.

ولكن البنت جاءت ولم يفرح بها. كانت لحماً طرياً. زعقت مرة واحدة ثم استكانت حين جرى بالأم إلى المستشفى كان كل شيء قد انتهى عجز الطب أن يوقف الضغط، ويمنع الرأس، وانزلق اللحم المدمم وظل جسد الأم يرتجف ويتقلص تحت المخدر وبعده لم يهتم بالتحقيق فلن يعيدوا إليه ابنته، ولن يتعرفوا على هذا الذي دفعها بغل مقصود – في بضعة الأيام القليلة الباقية – على سلم للمبنى شاهق وسط العاصمة.

كانت البنت لحماً طرياً، يميل إلى الزرقة، وكان القلب ينبض نبضته الأخيرة والفم الصغير الواهن الدقيق يزيح رغوة البطن وينطبق.

أخذها في حضنه، ألصقها جلده، وعدا هرباً، وتبدت الجهات كالسدود ولم يبق إلا اليم كانت الأصوات تحيط به من كل جانب، تئز وهو قابض على مضغته، وبدا الأمر كأنه الحصار سنقتلك. تلك البداية سنطولك حيثما ذهبت. انتبه نحن نحرك الحياة، ونصنعها ولم يبق إلا اليم. وغاص وطفا وانطوى الماء.

جاء حملها متأخراً، قال الأطباء: ليس ثمة عيب لكن الجسد غير مهيأ لتحمل الأمر. كأن الحب لا يكفي في تهيئة الفعل، وكأن شيئاً مستتراً خلف الخلايا كان يبث إشارات غامضة أن ينقبض الرحم ويمنع اللقاح. ولم يمل حبها، كانت ذراعه الذي يتكئ عليها وفي عينيها الجميلتين الوسيعتين الهدباوين بننهما الأخضر المعقود يستحم، ويتدثر، وينتشي وينطلق، ويعاند.

كانت تأخذه في الحضن، وتخلع عنه ثوبه، وتخفف من نشوته، وتنظر إلى البعيد "حين تفتح أبواب جهنم، ستكون أول الداخلين. قد يتركونك تقول. ولكن لن يتركوك تفعل. وأخشى أن تموت مرتين، مر بي، ومرة بك".

كيف لم يلحظ وقتها أن الجسد بحس داخلي غير مرئي يتفهم جيداً الموقف، ويؤزرها فلا تحمل وكيف هزه قولها في حدة عاقلة "دعنا نمضي ونترك البر كله" ويحيطها بأنفاسه، بقلبه ومشاعره هذه البنت العاقلة، التي درست واستوعبت كيف أحبت وخافت ورفض الجسد!! ولكن العصي قد

بات ذلولاً في لحظة مفلوتة من رقابة الداخل حملت فغرد العصفور ورتل الحمام ونجم الزنبق من غصون مسترخية.

ولكن البنت في حضنه، أمله الذي ذوى، لصق جلده. يخوض بها الموج الذي انطوى له.

حين وصل الشاطئ لاهثاً، كان اللحم الطري قد ضرب فيه السواد ولمع الأديم وبدا الكون غافياً كأنما لا يبالي بأحد فكوم قبضته وسددها إلى الكون كله. حفر قبراً من ثلاثة أشبار، وأسلمها إلى جذع النخلة. وذاب الجسد في الجذور والعرق والساق.

أطل من نافذة القطار فلاح الأفق ملفعاً بالأحمر المصفر لا يذكر أنه ارتاح للأحمر يظل يتداخل أمام العين في أرجوانية مرعوشة يبدأ باضمحلال الأصفر حتى يتيقن الأحمر ويمضي إلى السواد حمرة قاتمة تذكرك بطين الأرض المحروق.

والقطار يندفع ويصدم الفراغ، ويهب الهواء كالموج وتلوح كالغيم عصفورة ملساء كاللحم الطري، فمد الذراع، فرفرف الجناح، ونقر المنقار، وحطت على الذراع كانت رقة مرعوشة تسيل من عينيها. التقطها في رهافة، اقترب المنقار من شفتيه الغليظتين فأحس به كلمسة الوليد فارتجف.

ذكرته باليمامة الوديعة التي اتخذت من النخلة عشاً. اكتست الجيرة معها برداء رهيف من حنان الأب. لم يتوان عن بث التراتيل. حتى إذا دعاها خيط النور لبت نداءه في اتجاه ضوء الشمس الوليد. وظل ينتظر

عودتها. مهد لها العش، وجهز الطعام، كان يحادث نفسه بأن غذاءها من جمار النخلة يعطيه الحق في العتاب والزجر أيضاً فهي تتغذى من عصارة البنت، من لحمه هو لكنها تعودت أن تتأخر، وحين عادت وقفت في حياء ثم طارت وحطت. طال العنق ودارت ثم توارت وهو الذي ينفضه قلبه أن تأخرت يرمقها من بعيد كانت لا تريده أن يرى فرأى. كان فرخ اليمام يتسلل خفية، فأدرك أن الفجر موعد الهجر. قام الليل طوله يعيد التراتيل فلعلها تعي شيئاً من أحزان القلب، فليس كمثلها يمامة اقتاتت من لحم الجسد ولكنها ولت وفرت وتأكد أن الفجر موعد الهجر فسال الدمع سخيناً.

هو الموعود بالأسى والحزن، المنذور للفراق والهول.

وهي الموعودة بالغرم والفقد، ولعها باليمام والعصافير والكناريا لم يشفع لها، رقة العين واكتمال البهاء سعياً بها إلى الهجر حتى الفقد الأكبر – البنت – داسوه وبدا كالوطء الممتهن. ومع أنهم طووا الآلام إلا أن الهاجس المتربص ظل كالغيم لا يمسك.

لم يطل غيابه عنها هذه المرة، فسفرته الأخيرة إلى الشمال حرص على ألا تطول. حمل معه الثوب المزين بالأخضر الهادئ واللون الوردي فتح الباب وانتظر، كانت نشم رائحة عودته فتهل ضحكتها وتورق فيسرع ويخبئها في القلب ويسترها من العيون. يأخذها في صدره وتضغط، وتذوب في حضنه وتستمهله فالليل طويل.

الليل طويل طويل والصمت يمتد ويطول ويتجسم كالجدران الصلدة ظل يطوف بالأركان، يتشمم الأماكن كل حنية تزخر بلمساتها الوضيئة الستائر المسدلة تضوي برائحة الياسمين لكن الصمت يدب وهلتها تتباطأ.

ولمحها أطاع الهول به حين لمحها كانت تتساقط عضواً عضواً نظرت إليه في انكسار فأخرسه الخوف، هدر شلاله فغطاها، أنامها ودثرها، أفرد ساقيها وأسيل العينين وبكى. سرسوب الدم على الفخذ يعلن عن ألم لا ينتهي وضعت كفها على بطنها وتألمت وراحت في نشيج كالولولة.

اقترب منها في حذر: مَن؟. وتغوص به الأرض وتميد، نذبحه النظرة، كأنما تعلق في رقبته اتهاماً ألم أقل لك!. وينطق خوفاً: هو! وتنشرخ العين. متى؟ وتتلوى العنق في موات. كيف؟. وتسقط العين في حمرة الوجه ويتهاوى في الذلة.

تراءى له الشبح منتصباً ترى من سيأتي عليه الدور ومن يقوى على التحدي!! وخيل إليه أن الصوت المعتم يجلجل في أذنه ستحيا مغتالاً طوال عمرك.

وطال المساء وما رأى مساء بهذا الطول وكل هذا الألم. وكبل العجز جهده وجاء الفجر. ومع أول خيط الضوء سافرت روحها إلى البعيد. دثرها، ووسدها، ومضى إلى اليم، كان يجري، وكانوا يجرون. كان يتلفت إلى الخلف، وكانوا يتقدمون إليه. راحت المسكينة وتركت مضغة القلب مولود الموت رمح بها حتى هي كانوا يريدونها. يحرمونه منها ينزعونها يقطعون

الوصل، ويفصلون الامتداد وكان يجري، وكانوا يرددون (وقع). وكانوا يستميلون، ويهددون، ويقتلون.

ويسلخ من داخله صوتاً ملتصقاً ساخناً ويرفض كيف يوافق على الموت. الموت بالأسمنت كالموت بالبودرة كالموت بالحرب، كالموت بالقول كالموت بالصمت كالموت بالموت كالموت "– موتك على يدي – لست الإله – أنت تعلم أنني قادر – كل نفس ذائقة الموت – ستخرج مطروداً – ليست البلد أرثالكم – أنت الآن مطرود – ولكنك لن تهزمني".

كان الإعياء يسد أمامه منافذ الطريق، ورأى نفسه يردد أكان يجب أن أوافق! أكانوا يتركونها حتى تلد البنت؟! ورأى نفسه يردد ولكن الفساد يجلب الموت. من يدري ماذا كان يمكن أن يفعل بها الفساد لو عاشت؟!. وجاء صوت عميق رهيف يكاد يخرق القلب! الموت يكمن في الطريق. أراد أن يتجلد فتجلد وهاجس القلب في خفقة مباغتة أغاب عنك أنه كاسر القلوب.

زفر في عمق حتى كاد الجسد يرتج ارتجاجاً، وردد في رتابة مهموسة:

- أكان يجب أن أوافق.

ونهض من مقعده، وعصفورته بين كفيه، وصاح في حدة:

- أكان يجب أن أوافق.

لم تطل – كثيراً – نظرات الركاب، ولم تستمر ضحكات النسوة خلف أكفهن، ولم تتركه عيون الصغار.

أصابهم هم طارئ ألا يدرك هؤلاء مقدار تضحيته، وعمق آلامه وتذكر أنثاه الحبيبة. فارتجف، ولبد في مكانه حزيناً، منكمشاً، كأنما يريد أن يتداخل. وتهند فبدأ الهواء ملوناً، بصهد الدم.

انسلخ عن المكان، والعيون، وهدير القطار وربت على عصفورته، فهي وحدها التي تذكره بالأحياء. لم يعبأ بالنظارات المتوجسة، ولم تؤثر فيه رقرقة الدموع في عيون العجائز، ولا جمود الرجال اقترب من العصفورة ورتل عليها آيات من أزمنة الهجر والعجز والتلون وذكرها باليمامة، ووعدها – أن لم تبحر – ألا بفارق.

وطارت العصفورة، وحطت. وانطلقت الأصوات راجفة: كيف لعصفورة زغباء أن تطير! ومن هو ذلك الذي يلبد في مقعده باكياً يلاعب الهواء، ويناجي العصفورة؟ أي مخلوق هو؟ أولى هو. أم حاوي جديد؟.

واتجهت العيون إليه. وكان يتابع عصفورته وهي تتقافز من مقعد لآخر وتحط فوق السيقان، وتطيرها الأيدي وتنزلق في خفة، فتنقر اللحى، وأثواب النساء، وصدور الفتيات، وعيون الفتيات. وبدا لوهلة خاطفة كومضة البرق بقعة سوداء عند القلب كهيئة الخاتم وبملامح الأسود.

وتمتد الأيادي إلى العصفورة وتمتد في غل من تعرى وافتضح واندست الأصابع في الأحشاء، وبدا المشهد كأنه لامرأة مبقورة البطن.

ويهب من مقعده، طالوها قبل أن يصل إليها بقروا البطن، وترصد الغراب لحظة انشغال واحدة أخذه السفر ولم يحم أحباءه. وخلع ثوبه وغطى الجسد وجلس بجانبها يبكي تلك التي أعطت وما بخلت، وحذرت وما وعى.

رآه في بهو العربة لابساً درعه، فتذكر عنترة بن زبيبة وهو يلبس لأمته، ويمتطي جواده الأبجر، وفجأة رآه يخب في ثوب أبيض فضفاض. لم يدهشه أن يتشكل الوجه، ويتغاير الرداء. وكيف يتصالح العنف والوداعة؟. وتأكد أن الوجه واحد والجسد واحد وفز من مكانه صائحاً:

- لا تتحرك.

واقتحم البهو والفراغ والأجساد، وتطارحا، وتماسكا، كان أن يهوي به لولا الناس الذين تقدموا أحاطوا به وصاحوا في صوت مرعوش "يحيا العبسي". هاله ما سمع فزعق كالنفير:

- الأسود صاحب الدرع هو الحاوي ماسك الحجر، هو الذي دس يده في جوف المرأة، هو قاتل حبة القلب، وخاتم القلوب بخاتمه.

طغت صيحاتهم على المكان، وغطت العيون والأفئدة، وحجبت صوت القطار. وانتزع جسده، وقفز قفزة هائلة، فطال ذراع الأسود وشق الرداء. لاح الوشم سافراً على بطن الذراع، حمحم الجواد من ضغطة الفارس، وكان طائراً كالعصفور يرف على الكتف. أصابه الذهول فجاءته دفعة قوية أعادته إلى مقعده.

أحس بالوحدة، وكشف عن ذراعه. كان الوشم الأخضر فارساً وجواداً وعصفورة. مد يده وقبض على الفارس.تقلص الوشم تحت أصابعه. كاد الفارس أن يهرب فأحكم عليه قبضته، حاول الجناح أن يطير بالعصفور فغاص به في الجلد، وكلما تدافعت أرجل الجواد ساخت به إلى اللحم وتقلص الوشم تحت الأصابع، وصاح في صوت كالبكاء:

- ليس مني هذا الذراع.

وتساءل في هوس مجنون:

- كيف رسموك فوق ذراعي؟.

وكان الوشم لا يزال، فمد ذراعه بطوله. خلعه في قوة قاسية، فسال الدم ولون المكان. فتح النافذة، ورمى بذراعه في اليم.

غارة القمر

جاء المولد في موعده فامتلأت الرحبة الواسعة بالجموع المحبة، وتداخلت الرغبات وسهرت القلوب على إيقاع الأضواء المنسكبة. وعلى حزام الأفق البعيد لاحت عينان يطل منهما نور شاحب يفيض بالدمع. كانت الأم تبكي وهي في طي الأفق هذا النبذ الذي طالها والنسيان الذي هد كيانها كله. وكان الرائي يراها قابضة على جوفها، تعافر وهي تنزع كبدها النيئة وتنهش وتصرخ ولدي ولدي وكان البدوي قائماً في مولده.

تعالت أصوات المنشدين، اختلطت وتلاشت. وبزغ صوت كالأنين يساعد من دف قديم، يزاحم الضوء، ويعتلي الهواء عله يفقأ هاتين العينين ويخرق الأذنين اللتين رفضتا أن تسمع رجاء الرجل، وبكاء الولد.

وسحبت أصوات الربابة مداخل الأسماع وسافرت العيون مع أضواء النيون وتسللت إلى الخيام تلتقط حركة المنشدات وتبقي عليها. وطاف السيد بالأتباع، فتداخلوا، وبدت الأغلال تجذب الرقاب وتثقل الصدور.

وأخذت المنشدات يطرحن الآهات ويبحن بالغرام فقبضن على القلوب وقامت حلقات الرقص فاشتبكت الأجساد واسترخت الأعصاب

وتلون حبال "النارجيلة" في المقاهي والأخبية، ومد القمار يده إلى الجيوب، والقلوب، والنقود وتمدد.

وكان كما هو لا يتحرك. ولا يفارق مكانه. وما اهتز لما يرى. قبع في ركن بعيد يرنو وينتظر. أرسل أيوب سمعه إلى خضرة التي لبست الحرير ونادت على الصبر.

حين أقبل تداخل الطوار وأفسح المكان، واندك هو واقفاً كأنه ملصوق بأديم الأرض. حرك رأسه فتمايلت حبال الطربوش القديم المدفوس بإحكام، وعكست النظارة السوداء الأضواء، وبدا عموده الفقري – في انحناءة نحو الصبي – ناتئاً كدرجات سلم صخري، تهدم وأصابه البلى. أخذته تنهيدة عميقة هزته وذكرته بامرأته وهي تتقافز على ظهره وترتاح على درجاته المنزلقة. وهبت ريح شتوية فرفع ياقة جلبابه الصوف وحمى قفاه من قرصات البرد. كان الصبي يلاصقه ويقف منتظراً. وكانت عينه تمتلئ بالقذى الذي يتساقط، وكان الحذاء يسمح لأصابع القدم أن تتحرر من ضغطة الجلد وعفونته.

ودارت عينا الصبي تطوفان بالمكان، ففي ليلة الختام يسهر الشباب، وتحجل النساء بسيقان ممتلئة، وتتعالى خبطات الخلخال من خيمة الأضواء، ويصك مسمعه خضرة، وسكينة، والحاجة، وطه. وراوغته الأذن فتسمعت صدى الصبر يغني في الموال. فأدار في بغتة رأسه كله فرأت عيناه أيوب يبكي، فسقطت دمعتان عصيتان على أصبع قدمه النافر من جلد

الحذاء. ولاح الناس – ككل ليلة – يتصايحون ويتدافعون وكأن يدا خفية تدفعهم إلى "أنغام" النيون.

والرجل في حنية الطوار المسموح بها يعالج أوتار كمنجته ويصنع العجب. وبلغ الصخب خلجات الأوتار، واحتوى إيقاع الدف في يد الصبي. وجاءه صوت هارب كالحكمة: من يرق سمعه في جوقة الصخب. فأمال الرجل عنقه وبدا كالمنتظر.أرخى الصبي دفه وحدق في الناس. ضغط على نفسه وكظم غيظاً يزلزله وهو يراهم يلوون رءوسهم كلما مروا بهما كأنهما صرصاران. والرجل بجانبه لا يرى شيئاً. كان ساكناً كالحزن القار في القلوب وتمتم في حدة:

- يستمتعون بكتلة اللحم وهي تتحرك تطولها الأيادي وتنفتح القلوب ويطوي النيون الأهداب والأقدام والألسنة.

خبط بقدمه الأرض فاهتزت ولانت:

- الدف في يدي يشجي الأصم. لكن القلوب موصدة.

لم تخطئ أذن الرجل حزن النغم الذي وصلها فامتدت الأصابع تلعب على الوتر. وناوش بحساسيته تجاعيد الزمن. لكن صكة الدف بفعل الغل، أكلت حزن الأنين وأغرت الطوار أن يتمدد. فتمدد في بلادة.

خلع الصبي عينيه من قسوة ما يرى. كان الزحام شديداً أمام الخيام، والمزامير ترتل، والأنغام المهوسة المنفلتة تخادعه وتخترق مسامعه. ويظل كما هو وحيداً متفرداً لا يهتم به أحد ولا يتوقف أمامه واحد ممن يتزاحمون

لرؤية المغنية والراقصة الفارعة. وغرق الرجل في الصمت. وكانت الأضواء تمسك بالفراشات وتحرق الأجنحة، وأيوب في ركنه البعيد يجاهد. وخرج الصوت حاداً، قذفه مرة واحدة واستكان "أيوب يتعلم منا الصبر" وظل جسده يرتعش فاختلج الرجل وأمال رأسه، ومد يده، وتحسست الأصابع الرأس، والشعر والأذن وتوسدت الكتف. قاس المسافة بين القلب والقلب وفرح:

- والله كبرت يا عكروت.

وصمت لحظة. كان القلب يفيض بألم حقيقي غطى على سعادته بالولد ثم تمتم:

- مالك!

لم يجد الولد فما أهمية أن يقول لرجل لا يرى. وقبض على يده وجلس، اتكأ الرجل على الكتف وجلس.

احتضن الكمنجة، وفر صوت هارب من لمسة طارئة. وبدا الجسدان كأنما يتداخلان. واستكان الليل في غبشة الضوء. وهجرت خيوط القمر مراياها وحطت على خدود النساء، وهب الهواء الخريفي يمسح الوجوه وينعش القلوب. واختلطت السحن وتمكنت الضوضاء من المكان، وخيمت عتمة مفاجئة فلاح القمر واهناً وجأر الميدان واستغاث وأطال الرجل وجهه، وقرب فمه، وهمس في أذن الولد وراح يشد جلبابه، ويدفس الدف في حجره ويطلق عينيه.

كانت البنت الصغيرة تدفع أمها دفعاً، وكانت عيناها مصوبتين نحو الرجل والولد، وأخذتها انحناءة الرقبة واهتزاز حبال الطربوش المدكوك في الرأس، والنظارة المعتمة، وحركة الثوب الضاغطة على الفخذين، واستسلام الدف لضربات الولد الصغير. ثار شجنها البريء وشدت يد الأم واتجهت نحوهما. نبهت أمها إلى الولد الصغير، وحذائه المفتوح، وثيابه البالية ورددت:

- الجو بارد يا ماما والولد بردان.

لم تقف المرأة طويلاً، أخرجت من كيسها عملة صغيرة، وأعطتها للبنت، وأخذت البنت الورقة المالية الصغيرة ووقفت أمام الولد ومدت يدا واهنة .. لم يفت الولد حركة اليد المرتجفة فأطال إليها النظر، رمشت بعينيها ومشى حياء مندهش على الوجه.اقتربت، ومدت يدها إلى آخرها .. وظل هو يحدق فيها. كانت عيناه واسعتين فرأت فيهما أمواجا مختزنة .. وحين التفتت إلى أمها، وسحبتها من يدها بقوة، ورمت بالعملة في حجر الولد .. تطلعت إلى الأم وقالت كالمستجدية: –ماما .. الولد يبكي. ولما لم تجد اهتماماً من الأم تحشرج الصوت حتى باح بالألم: –كان يجب أن نعطيهم أكثر.لوت الأم رأسها، ونفضت شالها، وقبضت على يد البنت في شدة، وقالت: ––نحن لا نصلح الكون يا حبيبتي. وسحبت البنت كفها غاضبة: –لكنهم غلابة يا ماما. ونهرتها الأم أن تفعل ذلك؛ فالزحام شديد، وقد تضيع فيحدث لها مكروه. خافت البنت فاستكانت ولبدت في حضن الأم، والتصقت بالجسد. ربتت الأم على ابنتها، وتوقفت لحظة

ثم قالت ببطء: –من أدرانا –يا حبيبتي– أنهما يستحقان العطف. وقفت البنت فجأة، وفتحت عينيها: –من يستحق إذن يا ماما.–كثرت الحيل .. فلم نعد نعرف من يستحق. ورمشت البنت، وتعثرت، والتصقت بالأم، وقالت في رجفة: –هما مهذبان .. أرى معهما كمنجة. وعادت الأم تحكم قبضتها على البنت .. وحطت عينا البنت على الولد، وكلما واتتها فرصة حركت رأسها في التفاتة سريعة حتى غيبها زحام المولد .. ووعى الولد تماماً هذه اللفتات الحانية من البنت، وأمضه أنيري الأم تقبض على كف الصغيرة بلهفة من يحب بقوة.

زفر الرجل زفرة ممطوطة تفيض بالهم، ونهض ماسكاً بيد الولد. والولد صغير على الهم، ولكنه يجب أن يشعر أن الأمر جد، وأن الحياة تحتاج إلى صبر ومجالدة .. لم يفته أبداً وشوشات الهواء التي سكنت الفراغ بين الولد وصوت البنت الطري .. .. ودخل ساكناً في قلبه ما قاله عن أيوب .. هو لا يرى، ولكن الكون مغموس في قلبه. يدرك أن الولد يحتاج إلى الوليف بعد أن تركته أمه .. وهو سيواجه الأيام بدونهما معاً وعليه أن يصمد، وأن يحب يومه وغده، ويؤمن بأن القلوب ليست كلها جامدة ولا العيون مريضة ..

وأقام عود الولد، وحرك صاجات الدف ومشى بالعصا على الوتر .. كان يحكي عن المحبوب الذي هرب وأخذ السكينة معه، وهجا الفقر الذي وأد الحلم، وكسر بقلب الولد، وناشد القمر ألا يستسلم لبنات الحور؛ كما استسلم، وأرسل للقلب المخبوء وراء الغيم عتاباً؛ ما كان أجداه لو أزاح

الغيم وانطلق .. لكنه يجمع مأساته، ويعلقها في رقبة البدوي .. وأنت يا بدوي المراد .. .. وتمدد الطوار واهتز، وأفسح المكان .. وبدا في خفقة الضوء أن النغم هارب، والقول مطوي، والصدى لا يتعدى الوتر .. ووشى وجودهما بعزلة من يعيش في الخلاء، والولد هو الذي يرى؛ فالناس لا يقفون لدف ولا يحبون أن يسمعوا من أعمى .. حتى النسوة لم يعد يؤثر فيهن ولد ممزق الثياب، واخترقت عيناه المئذنة. وشد الرجل جسده فجأة، وأرهف سمعه؛ كانت حزمة من الأصوات تأتيه مختلطة، وتشي ببهجة. ظن أن الحظ موات فتحسس كتف الولد، وضغط بأصابعه، وثرثر الشباب في ضجة. أقترح واحد بصوت عال أن يستمعوا للرجل وصبيه .. فهبوا صائحين: –من يبيع الهوانم برجل ناشف. وعجز وهن النيون الفضي أن يكشف مخايل الوجوه؛ فاخترق في قسوة سكينة الرجل، وخدره بأطياف أيام ولت، وتمددت الخيالات في مساحة الأذن، واختلطت الأصوات، ولاحت الضحكات مصكوكة، وانفلتت الجماعة هنا وهناك .. واستند الرجل إلى الجدار، والتصق الولد به؛ كانا كأنما نحتا منه. لم تستمر طويلاً نبضة القلب المواتية، وكمن وراء القناع الساكن قلب يغلي، ولاحت الوجوه – في عينيه– كعناقيد نبات البرك .. ومع نسمات الليل كانت هجمة من العطور تأذن بالحلول. رفلت النسوة في ملابس مخملية، وفاحت رائحة أجساد مستحمة، وتثنت القدود حتى بدون كبجعات ظامئات لزخات المطر، وانسابت الضحكات رهيفة، حيية، وجريئة، وستر الظلام المسكون بالضوء الشحيح ليل الخريف، وهبت روائح أنثوية، ففتح الرجل أنفه على اتساعه، وانحنى يلكز الولد.

– الآن نستطيع العشاء .. فليست النساء كالرجال. ولكن الولد لم ينطق؛ فالأمر بات أمامه واضحاً كالجدار الصلد. لم يمر بزمن يعاكسه كهذا الزمن، والليلة هي الختام، والأب يعقد الرزق عليها، ويخطط، ولاذ بالصمت، وهو يلوذ به؛ إذ لا فائدة من الكلام إذا كانت الحالة سيئة، وتنبه الرجل فحكى له عن الأيام القادمة التي تفتح أبوابها، ولا تبخل فضحك حزناً: –حسبتهن أعطينك شيئاً. وازدادت ضحكته، وقال مبتسماً: –أشممت عطراً نسوياً مثلي! وابتسم الولد، وخبط الدف على فخذه؛ فاهتزت الصاجات: –تعودن الكرم في ليلة الختام. دغدغ الولد شفتيه، وتمتم: –حجلن، ووقفن ثم مضين. وهاجس النفس متمتماً في حزن: –كما مضت. وعضت الهمسة الكاوية قلبه فوقف.

كان الصوت كالريح يعوي .. بدوي .. ونقر الصوت القلوب ولم يدخل، ولاحت ذؤابة المئذنة في عينيه كشواشي الشجرة حين لا يحركها ريح .. واقفة، ساكنة، متعالية .. وحدث الولد نفسه ماذا لو دخل الجامع وفتح صندوق النذور .. وكبش منه حفنة .. أيغضب منه البدوي! ويا بدوي .. متى تدخلني أغوار قلبك! وفاض حنان مكتهل على صغره، وتبدي في الأفق المعتم وجه له عينان مرتهن على أهدابهما الغيم .. وجه لا ينساه .. .. كان الوجه يزاحمه، ويباغته، وكانت أمه تحرك وجهها وتضحك .. وكان أبوه يدعوها بجنية البحر .. جاءت الجنية .. راحت الجنية .. قلبها تلون بالخضرة؛ فأحبت النغم، والجميل، واستعذبت النغمة الشاردة، وتلذذت بوشوشة الريح، وأعجبها الرجل .. الأعمى أعجب أمي؛ فأخذته، وجاءت بي منه، وحين أدرك شاهد عجبا .. الجسم ريان،

والأعمى ناشف ممصوص؛ لكن نغماته شاردة. وكان يحلو له أن يجلس محتضاً كمنجته، ورافعاً يده عالياً كأنما سيأتي بعبقري النغم، وتختلس الأم النظرات، وتزيح أهدابها، وتتنهد، وهي تربط منديلها الزهري .. وتنحني تلاطف الولد .. وترمي بيديها في كسل وتمد ساقيها .. والساق ممتلئة، ومبرومة، والثوب ينسحب، ويتعرى .. والعين ساهمة، وتنطرح العيون على الخبيئ، وتمضي، والأعمى يخرج لفافة يفتحها، ويأخذ منها قطعة سوداء يستحلبها –عرف فيما بعد أنها فص أفيون– .. ومع كوب الشاي الأسود يردد في بسمة ثرية (ليلة بيضا .. يا بيضا) .. ووجهها الذي يحمر ما عاد يحمر، والوهج الذي رآه ما عاد يراه .. فحين طال العهد قليلاً تجردت من الروح، وسعت إلى الخارج .. كان الخارج يناديها، وتلبي النداء .. ولم تدرك أن الولد بدأ يعي، وهو يرى الوجوه .. حذرته أن ينطق حرفاً واحداً .. وحمل وجه الأعمى وقتها عذاباً، وقلقاً دائمين. في مساء ليلة الجمعة قبل الغياب .. سأله أبوه:

–هل أمك بخير؟

وتشنجت أصابع الولد، وأسرع قائلاً:

–نعم بخير.

– أكاد لا أحس بها يا ولدي ..

عجز عن معرفة ما حدث لها .. لم تكن هي التي يعرفها. من لبدت في حضنه، وشهقت كهديل الحمام .. ود أن يسألها يوماً عن الجسد الذي

فارقه؛ لكنه خشي أن تغاضبه؛ فصمت، واستسلم. كان غضبها يطول، والولد يتعذب. تجاهل العطور، ورنين الأساور، والجلد الأملس الناعم .. واستسلم .. أدرك أنها فلتت، تركت الأطراف، وذهبت إلى العمق. لا يستطيع أن ينسى كيف كان جسدها يهمهم بخيالات الظمأ .. واستسلم .. من أجل الولد .. لكن الأم ضمت أشواقها، ولمت شهواتها، ورحلت .. والولد لم يعد يقاوم مخايلة الوجه له .. انعقاد الدمع في العين .. وارتباطه بالأب .. لا ينسى لحظات الفرح التي غمرت أباه، ولا رنة الصوت الممتن للأم وهو يحتسي كوب الشاي، ويتحلب الفص في فمه .. سأله الولد، والأم حاضرة؛ تضرب على الدف:

- ما الذي أعجبها فيك يا أبي؟

ويضحك الرجل مزهواً:

- أبوك رجل يا ولد .. وسل أمك!

وكان ما كان .. لم تعد الرجولة قادرة على استبقاء الحب .. الحب .. هذا الوجه الذي يختاله، ويظهر له داعياً إياه أن يتبعه .. يود لو يغوص فيه بسكين، يشطره نصفين نصفاً له، ونصفاً لوالده .. وقتها لن يبقى منه شيء منه للآخرين. كان ينسحق وهو يراها تسدل الستارة، وتختفي .. أطعمته جيداً، وألبسته الجديد .. آخر عهده بها رفض أن يأكل من التفاح الأحمر المدمم، كانت هي اللحظة التي أدار ظهره فيها وبكى .. ورفض أن يمضي معها .. فضل أن يظل في المكان الواطئ بروائحه النتنة، وناسه الأجلاف .. ونغمات الأعمى الشاردة. ودق الولد الأرض بقوة .. فإلى

متى يظل واقفاً على حاشية البشر .. مولد هذا العام ثقيل الوطء، ومتواطئ .. كاد الحذاء ينخلع بفعل الغل؛ فانبسطت الأرض، ولانت .. وتموجت .. اهتز الأعمى، وتباعد الطوار، ولاح كالغيم المنثور أشباح تمد بك بالدفوف، وتغني .. "يا محني ديل العصفورة". انحنت الجدوع، وضوت المباخر بذؤابات بيضاء ثم هرولوا .. فهب أيوب يحمي جسده. وارتجف الولد رجفة طوحت بالأعمى؛ فهناك خلف حنية لفها الظلام، وسترها – كانت تلبد– تتقدم خطوة، وتنسحب. يطل الوجه، وينتفض الجسد، وينقبض، وتأكد منه لحظة انسكاب ضوء شارد. بلع بهلوان النار ناره في خفة، وطلب من الناس أن يصفقوا. زاحمتهم، وصفقت، ولزمت الحنية. رفع وجه إلى السماء يلتمس العون، وتصاعد من الفم عمود اللهب مرق كالشهاب واختلط الزئير بالدخان ولمحها فتخفت كان الرائي يراها تضع يدها في جوفها وتنزع كبدها وتبكي ولدى، وظلت الرجفة تنفضه فطوقه الرجل بذراعيه، ولبد مستكيناً في حضنه، وتجسد في خياله حركة البنت وهي تمضي مسرعة مدفوعة بحب الأم، وخوفها عليها مع أنه .. هذا الولد الصغير مفتوح الحذاء .. رفض أن يمضي معها، وفضل أن يبقى مع الأعمى جاءته مرة متلصصة .. انتظرته خلف البيت .. وتقدمت متلهفة .. وما إن مرق خارجاً حتى قبضت عليه؛ بهت الولد، وفتح عينيه، وابتسم ثم استكان في حضنها ونطق في لهفة:

–سيفرح أبي بعودتك.

احتضنته، وأبقته في صدرها، وتفرست فيه وبكت:

–ألا يطعمك الأعمى!

مدت يدها، وفردت ذراعيها، وأقبلت على رأسه .. تقبله ..

–رجعت لأخذك معي.

وينسحب الولد من الحضن ويقول:

–إلى أين؟

وتبتسم وتطوح بذراعها عالياً:

–إلى أخر الدنيا. طأطأ رأسه؛ ثم أسال عينيه على وجه الأم وقال:

–وأبي.

–ستتركه وتأتي معي .. معي .. الحياة أحسن.

وسحب عينيه في ذلة:

–ولكنه أعمى.

وأقبلت عليه مبتسمة:

–سيدبر نفسه، وسيجد واحدة ترأف بحاله.ثبت عينيه على وجهها وقال:

–حدثني أبي .. أنه ليس مثلك واحدة. أخرجت قالباً عريضاً من الشيكولاتة وراحت تحادثه:–معي ستخرج إلى الدنيا، وتعيش ستنام على

قطن، وتلبس أحسن لبس، وتأكل وتشرب وتتعلم.فلتت من عينيه دمعات وقبلها محتداً:

–ولكنه أعمى يا أمي .. أعمى يا أمي.

وجاءه الصوت من الداخل ضعيفاً وملهوفاً: أتحادث نفسك يا ولدي .. أم معك أحد؟ ونطت قائمة، ومسكت الولد في قوة وطلبت أن يمضي معها، وألا يتفوه بكلمه .. ولكنه رفض .. وحين مالت عليه تقبله أدار رأسه كله فمرقت مواليه وهي تسبه: في داهية أنت وأبوك ..كانت الفراشات تنطلق نحو أضواء النيون وتلتفت حول المئذنة كالعمامة، وكان الوجه يخايله منذ أن لمحه في خفقة نار الحاوي، ووقفت أنامل الرجل على تخوم العين ..

وقال:

–ادخر دمعك الغالي وابتسم وهو يعلم أن ولده يعلم أنه يتقطع:– كانت أمك تدخر ما يفيض عنا.

–ليتها ما فعلت.

–لعل ما أخذته يسترها ..

لم يترك الولد مكانه، ولم يستسلم لحنين الأب، وعب من نسمات الهواء البارد ونبه والده أن عليهما أن يبهرا حتى لا يضطرا إلى التكفف، وانشق قلب الأعمى فرحاً ونسجت الأنامل ألحاناً منمنمة وانساب النغم

كموجة قمرية .. وتوطد القمر، وتدلت خيوطه، ودحرت غبشة الليل .. وأرسلت بنات الحور جدائلها وازينت، وهطلت كزخات المطر عبارات المديح فاقترب الرجل من الولد والوجه سرى فيه الدفء وانتشى:

–الليلة نأكل أيها الولد. وانحنى القمر يرسل نوره وراح ينفذ كالألق وينتشر كالريح، كان يقوم بغارة من البهاء والبهجة، وفي حومة القمر، دار الناس في انتشاء وارتدت العطايا بوشاح القمر الأبهى .. واتكأ الولد على الوالد، وقبض من غبار الغارة حفنة من الضوء وطيرها في الأعالي .. وكان الرائي يرى في خفقة الضوء شبح امرأة تضع يدها في جوفها وتنزع كبدها وتصيح .. ولدي .. ولدي .. وظل القمر سيرسل ضوءه ..

قيام الجسد

ضحكت فارتعشت نجوم السماء وفاضت بالفرح، وباح الجسد بزهوة البهجة فاهتز. شدت قامتها فلاح التكوين منحوتاً في ظل ضوء شحيح، واقتربت وهمست "احبك". خطت فماثلت مهرة أصيلة؛ فردت زراعيها على المدى وعبت ضوء النجوم وغنت: هذا أوان الحب .. استدارت، وتطلعت إلى الأفق البعيد في صمته المناوش وقالت: الكون يشهد لي .. وكان كما هو .. ساهماً يتأمل في سكون، ويندهش في صمت ظل يلازمه، ولم ينجح النجم الزاهي، أو الخطوة الموقعة أن يصطاده .. وكأن حجراً صلداً وقع على فتحة الحس عنده فلم يشارك. أزاح نفسه عنها ولبد ساكناً .. تناهى صوت طائر الليل يرتل في انتشاء فقبض على قلبها وتمتمت:

–أنه يبارك الحب ..

وتعلقت عيناها بملامح الوجه العصي الهامد. كان قد وضع رأسه بين كفيه واستسلم لنظرة بعيدة ساهمة لامست الرأس، وانتظرت تمنت أن يرنو إليها، ويطل على خفايا النجوم في غبشة الليالي. فرك جبهته بأصابعه وأدرك أن صمته طال حتى كاد يسمع نبضات قلب مهرته يفز من صدرها وأن غضبها سيتحول إلى حمحمة ويدفع بأنفاسها إلى وجه الباهت الذي ظل في همومه بارداً لا يريح القلب الذي يدفئه .. أمال رأسه قليلاً وهجس في خفوت:

–أيتلاءم الحب والحزن؟!

ومشى الازدراء على ملامحه فتغضن الوجه وتحددت سمات معتمة على ثنيات جبهته العريضة– قضى الانكسار على الحب ونهش القلب.وعضها القلب فالتوت، واحتدت، وواجهته:

–أنتم مغرمون باليأس. نطر ذراعه كأنما يعارك شبحاً وصرخ محتداً:

–أين تعيشين ..

–إنها الهزيمة ووقف الدم في الرأس، واندفعت في غضبة من غضباتها المشهودة:

–وهل يمحوها الندب كالنسوان؟

أساء المعنى إليه فمد يده وقبض على كفها في قسوة؛ فاهتز القوام لكنها شعرت برعشة احتوت أصابعه فلاذت بالنجوم .. أبهجها أن النجوم لا تفارق ضوءها، وأهمه أنها لا تيأس فأرخى يده وسقطت في هموم وخيالها طيف زمان ولى فهمست مشجعة:

–لو استسلمنا فقدنا الحب وضعنا. وأرهف العين فشاغلته النجوم فاغتم وأدار ظهره، ونهض استقبل الليل بعمقه ومضى تركها لقلقها فتوجهت إلى السماء واشتكت:

–متى يفهم أن الحب حياه.

أخذه الطريق المترب فأطلق بصره على الطين والحفر، والوجوه الكالحة والسحن المتبلدة. اعتلى حنيه عاليه ودار خلفها ثم هبط في مدق ضيق واستدار إلى زقاق ثم دلف إلى اليمين ودفع الباب. ألفى العجوز في مهابته مشغولاً بالتلاوة فجلس مشوش النفس واختلطت مشاعره وتعجب كيف للرجل أن يمارس طقوسه وكأن شيئاً لم يحدث .. وأمال عنقه ورنا فزاحمته نظرة مباغتة فاختلج الجسد كله. فاجأه العجوز حين قال:

–اليأس لا يأتي بحل ..

جرفه القول فاحتد وحدثه عن العيون المنكسرة وعن الموتى تحت الرمال وعن القبور التي ضاقت بموتاها، وعن الأحياء الموتى وعن قمع العسس، وعن الهزيمة التي وأدت الروح وعن الذين سحبوا أرتالاً للموت ولم يخجلوا، وعن البنات اللاتي ينتظرن من لا يأتي، وعن حبيبته التي أتهمته في حبه، وعن الذين يبررون، وعن النجوم التي لا تكف عن الضوء .. ودفع أصبعه في الفراغ وصرخ:

–خدعونا يا جدي العجوز فسقطنا ..

اهتزت المسبحة في يد العجوز ولكنه سارع قائلاً كأنه يضاحكه:

–لكن النجوم لا تكف عن الضوء.

حدق فيه ارتعد الجسد وبدا كأنه ينطرح وخرج صوته مهروساً:

– من يدري يا جدي؟

- ربت بكفه الدافئة على الكتف المرتعد

- وتمتم:

-أصحاب العيون الصحيحة.

- وأين هم؟

كان الوجه يلتوي وبدا على الملامح كأنما يتحدى الرجل أن يجيب أين يجد العين السليمة وسط خراب شامل وقلوب مريضة وظلمة عاتية هل يجود الزمان بزرقاء يمامة جديدة تستخلص الجوهر من تحت حمأة الموت والطين فاجأه العجوز صائحاً مبتسماً ومجيباً:

-أنتم الزرقاء

بهت، وانتفض ،ونهض، ومضى لكنه قبل أن يغيب خلف الباب أدار رأسه في بطء فلمح العجوز يبتسم ويردد في بطء:

-البلد كالنجم لا تكف عن ولادة الرجال.

شاعت الخضرة في الحقول ولاحت في عينه الذؤابات العالية التي كانت خضراء قد طالها سواد أغطش لونها حدث نفسه في صوت عال بأن القتامة لم تكتف بالقلوب بل غيرت من طبائع الأشياء وعلى مدى الرؤية انحنت الأبدان تمزق الأرض وراحت الأيدي تجمع الأعشاب وجذور النجيل التي تشعبت حجل غراب ثم طار إلى أعالي شجرة الجميز .. استقبلته الأغربة بصخب حاد وانزوت العصافير إلى أعشاشها وواصلت

الأبدان انحناءها. أحس بأن المكان ضيق، وأن القلب معصور، وأنه لا فائدة من يومه، ولا أمل في غده أطلق، صوتاً كالنعيب فجاءه الولد وفرش له النجيل وجلس. استند إلى جزع شجرة كافور عتيقة، وقطف فرعاً صغيراً وراح يتشمم رائحتها فرك الأوراق الخضراء في كفيه ومشى عطر فواح داهمه على غير توقع فتعجب أن تظل محتفظة بعطرها ولم تفرط فيه وأطلق عينيه ما الذي جعلنا لا نستبقي عبق الرائحة العتيق ووهج الروح الوضيء! كانت السحب في السماء تتفكك وتتهادى ثم تذوب أخذت الحركة عينيه وقبضت عليهما ومع أن المرأة وقفت أمامه تكاد تسد عليه الأفق إلا أنه لم يتنبه لها ولم يدرك وقفتها لكنها صادت في عينيه حيرة وتوهاناً شديداً، وبدا لها الوجهة سحنة باهته مرتجفة خطفت حصاة ورمتها؛ فرفرف عصفور وحط بعيداً، وتنبه للحركة وتنبه للمرأة فاعتدل.لم تفتنه نحافة الجسد وحفاء القدم ووضاءة الوجه وتمزع الثوب عند الكتف وبريق في العين ورجفة على الشفاه ورنا إليها وازداد هماً وردد في خفوت الفقراء لا مولى لهم واصطكت أسنانه في كزة قوية وخرج الصوت مجروشاً:

– فعلها ومات وترك لنا أن نثأر

ونظر إليها في تمعن ثم أدار رأسه. حيته ووضعت حملها ثم دفست يدها في صدرها واخرجت خطاباً مطوياً ومبلولاً وقالت في نبرة صوت كأنه الترجيع:

–إنه من الولد.

تناول الخطاب وظل ممسكاً به وأدرك اللهفة في ارتعاشة الشفة والتماس العين:

–غاب طويلاً وقلبي يأكلني عليه.

فض الخطاب وقرأ وباحت الملامح بفرح الأم وهو يقرأ تجاهلت وقفاته ونظراته ومصمصة شفاه وتابعت حركة رأسها مع الكلمة وسافرت عينها مع الحرف ورجعت شفتاها نبرات الكلام واهتز الجسد حتى كادت تنطرح فرحاً وخوفاً وهو يسرد عليها ما يحكيه الولد وتقلصت الملامح وسال الدمع:

–ربنا يحميه هو وأخوته.

ولما رفع رأسه إليها روعته لمعة في العين تخترق رقرقة الدمع فأسرع قائلاً:

–ألا تخافين عليه؟

تركت ليدها أن تتحسس موضع القلب، ولعينيها أن تتطلع إلى السماء كأنما تبتهل إلى الله كانت معه ذائبة فيه، راجيه أمنه، متضرعة أن يكشف الغمة. لم يدرك حالها فتابع في بلادة:

– قد يموت في الحرب.

ارتجفت، وأسرعت قائلة:

– أتمنى أن يعيش.

– أنت لا تعرفين معنى الحرب.

شدت قامتها، فلاح جسدها على نحافته مشدوداً ومدكوكاً حتى كادت تحجب النظر.. ولوحت بشالها وقالت مزهوة:

– أعرف أنه يحارب العدو.

كور عينيه، وحدق في المرأة:

– ما كان يجب عليك أن توافقيه.

وضعت يدها على لحم الكتف:

– وكيف نعيش أن ضنت الأم بولدها.

– قد يضيع منك.

سددت البصر، وتقلص القلب وغض فرحها فاختطفت الخطاب. ووقفت أمامه منتصبة وصامتة، أذهلها أن يرتجف، ويحتار، ويدارى وجهه منها:

– قلبي يحدثني أنه لن يضيع.

وسددت إليه الكلام الذي باغته وهي تضع الخطاب في صدرها، وتدفع بحملها على رأسها وتمضي كأنما تسد الأفق بجرمها النحيف، وقلبها الممتلئ..

– كان يجب أن تكون معه.. فأنت من عمره.

.. وظلت عيناه تلاحقانها، وتصطدم بمواطئ القدم.

.. أمي الحبيبة:

أكتب إليك على أمل أن أعود وحول رقبتي إكليل، من الورد.. حبل يعني.. لا تضحكي مني، هكذا يقول زملائي المتعلمون وهل أنا أقل منهم حباً للأم.. يقولون أن كل أم تنتظر ولدهما وفي يده وردة.. قد لا تصدقين أنني قمت بعمل ضخم وكبير.. حين قال الضابط: يجب تدمير الموقع. أي موقع؟ اندفعنا كلنا في صيحة واحدة. أشار إلى تبة عالية خلفها جرف منحدر، ودونها مساحات من الرمال الناعمة.. كان المكان بعيداً، وكان يجب التعامل معه من الخلف..

تذكرين يا أمي الحبيبة وصفك لي بنطاط الحيط.. أصعد النخل العالي وأجمع البلح.. لا تفلت مني بلحة.. دربني أبي على الصعود.. بطن القدم يلتصق كمن يتكئ.. القدم على الجريد فيوضع استقرار.. ترفع اليدان الحبل لتشد الجذع إلى أعلى.. يتحرك الجسد كأنه شيئاً لا يشعر به..

تلك كانت صنعة أبي.. وهل تذكرين وصفك لي وأنا طالع نازل.. عامل زي الدودة.. وتقدمت يا أمي وأصررت ..أنا ابن أبي.. وتحركت على سطح الرمال.. أتجاوز النتوءات حتى وصلت.. كيف انفجر المكان.. لا أدري.. كيف ألقيت القنبلة بهذه الدقة.. لا أدري.. وحين أفقت وجدتني بين زملائي يهنئونني ٠٠ وأضحك في عبي.. طلوع النخلة عمل عظيم!

واكتشفت أنك لست وحدك من وصفني بالدودة.. ففي نوبة راحة نادرة قال لي القائد:

– كنت تتحرك كأنك دودة.

سآتي بالنجمة.. بالله يامه ما تضحكي في عبك.. ستتفرجين عليها وتفرحين.. فليس كل متعلم أو غني معه واحدة مثلها.

والسلام..

لاحت الدار من بعيد مقبطنة كشاهد القبر. احتواها ليل غاطس الظلمة، ودق الباب. كشف منشور الضوء الشحيح وجوها متعبة، وملامح متلبدة. مرق إلى الداخل وتجاهل العيون، ورفض كوز البيرة وجلس.. وانعقدت سحب الدخان كالغيوم المعتمة. ناوله واحد من الجماعة جريدة مطوية. مد يده وقرأ. كان المقال يتحدث عن تواصل دورات التاريخ وتجاوزها لنكسات عابرة.

لا يدري كيف رأى وجه الأم بعض الصفحة كلها، وهي تنزع منه الخطاب، وتضع يدها على كتفها العاري، وتنظر في حدة.. ارتجف فتمتم هاجساً:

– من يستر لحمها؟..

كانت الآذان الغافية قد التقطت الصوت فمالت الرؤوس متطلعة.. فز واقفا وقال:

– من يستر لحمها؟

انفلتت ضحكات زاعقة، وخرج صوت يذكره بأن حبيبته شريفة، وعليه أن يطمئن ويسعى إلى الزواج بعد زوال الغمة.

علق واحد في سخرية وقال:

– استعد لصبر طويل.

وشده بقوة فارتطم وجلس:

– أنت مستور معنا.

وانسحب إلى داخله واكتأب.

أطاح أحد الشاربين بزجاجته وصرخ:

– ليس من حل سوى الهدم.

تناهى إلى الأسماع صوت ينبعث من الراديو يحمل شجنا فتمتم في حزن:

– أيتلاءم المغني والهزيمة؟

وارتجف حين زعق واحد بجواره وخبط الجدار:

– أنه سبب الهزيمة.

ضغط زميل قديم غابة الجوزة وأطلق دخاناً كثيفاً ثم علق في بطء:

–نحن نحارب بالغباء.

ولاذ بالصمت.. وراح يسائل نفسه: كيف يقوى على مواجهتهم.. هل يستطيع أن يذكر لهم ما قالته الأم، وكيف أشعرته بتفاهته.. هل يتقبلون هذا الوصف عليهم.. ونطق في سكون، وفي خفوت كأنما يخشي أن يسمعه أحد:

– انه الضياع.

اعتدال أحدهم بعد ضجعة طويلة وقال:

– هل هناك أمل ؟.

و تطوح الجسد المنكفئ وهو يردد في اختلاط من لا يبين.

– نخر السوس العروق والحل.. أن..

وانطرح ثانية لم يكمل.. تدلت رأسه، وتدلت جفونه.

اختلطت في عينه الأشياء .. تمنى أن يتحرر من هذا الضعيف، وأن يكسر قيده، وينهي تبعيته.. وشغله كيف ينسلخ عن جماعته بلا آلام كثيرة !! وكيف ينهي في حركة واحدة ضياع سنوات ممتدة !! لقد عجزت النفس أن تتحمل مكابدة جديدة.. وخصاماً قد يطول مع محبوبته.. لا يستقيم الحب مع الضعف.. الحب قوة.. ولكن الضائعين كثيرون.. وعزت عليه نفسه، فتناجي في حزن.. من يأخذ بيده، ويضعه على أول الطريق.. فلا

يستسلم، ولا تضيع منه حبيبته، ولا تغضب الأم.. من يخطو به هذه الخطوة. بل من يقدم الحل.. وينشر بالأمل.

لم يكن يدرى أنه وصل إلى العجوز، وأنه يتحدث بحرية كأن أحداً لا يراه.. حتى اخترقه الحديث حاداً. كسكين.. لم تكن حالته خافية عليه.. وكان يحبه.

– لا تتحدث عن الحل وأنت ضائع.

كانت أصابع العجوز تتسلل في بطء إلى لحيته الكثيفة، وكانت عيناه تحطان. عليه وتخترقانه. حاول الفرار فأوقفه، وقال له في وداعة:

– لم لا تعمل شيئاً مفيداً.

رنا إليه، فشاهد السكون يمشي على الوجه المبتل..

انتظر:

– نحن نحتاج إلى حماية.. انضم إلى الجماعة واحرسنا معهم..مرافق البلد مستهدفة.. فافعل شيئاً.

شدته قطرات الماء كحبات اللؤلؤ عالقة على أطراف شعره الكثيف فأخذه المعني.. وانتظر:

– الولد طالع النخل يحارب.. وأمه تدور على الناس ليقرأوا لها الخطاب.. ألا تقوم بعمل ما.. وأنت المتعلم..

شعر بأن ضعفه يتجسد هولاً كاملاً أمامه، فاقترب من العجوز حتى كاد يتداخل فيه.

وربت العجوز على الكتف، ومشت أصابعه على ذؤابات الشعر وقال في تودد:

– لن تستريح وأنت مشطور النفس.. اذهب يا بني واعمل شيئاً مفيداً للناس، وأخرج حبك وتباه به.. وأثبت أنك قوي مع حزنك المشروع.

ودفعه وهو يردد:

– لا تجعل يأسك يقتلك.

اقترب من المكان فرأى الساتر أمام المدخل يحجب الرؤية، ويقف خلفه شاب قوي يرصد ويدقق.. تطلع إليه ودخل. سجل اسمه، وعنوانه، وأبدى رغبته، ومجال عمله.. حددوا له ساحة العمل.. وحمل تبعاته.

هاله الشباب يتدافعون ليحصلوا على شرف عمل ما.. وبدأ الأمر كما لو كانت روح خفية مزاحمة تدفع الشباب إلى أن يفعلوا شيئاً.. لعلهم ينيرون ضوءاً شحيحاً في مساحة عريضة معتمة.

شد جذعه، ومسك تصريحه، وتلقي التعاليم، وحمل الدعاء بالبشارة.

وقبل أن يدير ظهره، تبدى له وجه الأم بمساحة الرؤية كلها.. فتعلقت عيناه بالأمل الذي يطل من عينيها المحدقتين.. وبدت كأنها لا

تصدق.. داخله شعور طاغ بأنه تأخر كثيراً منذ أن حادثه العجوز بأن يلتحق بفرق الحراسة.. وتمتم في شجن حقيقي:

– الوقت شحيح لمن طال غيابه

كانت روحه العائدة تدفعه فاندفع.

واستقبله الهواء رطباً ومنعشاً.. شعر بجلد الخوف الذي قيده طويلاً وأسلمه لبلادة ممتدة.. ينسلخ شيئاً فشيئاً.. وصاح كمن وجد ضالته:

– عاجز من لا يحب.

ورمح في الشارع فجرت وراءه العيون وصدحت الأفواه:

– اضبطوه أنه أحب.

و تألم لزمان افتقد الحب ولوى القلوب، وقهر النفوس.. وأحبط الآمال.. ولكنه الآن يمضي نحو هدفه، فات زمن العتاب والعذاب، وجاء أوان البعث:

– من لا يحب يهزم.

صكت مسامعه العبارة فاستدار.. استقبلته الوجوه في بشاشة فاختلج حباً.. ولاح الكون في عينيه منفسحاً ورائقاً. ناوشه القمر ضاحكاً فضحك.. وكان النجم لا يزال ينبئ عن ثغر باسم ويحكي.. وكانت حبيبته تسمع له.. وتفرح.. وتنتظر..

.... وتسلل الفجر الوليد في بطء وجلال.

المتاهة

فجأة لم أجده. كان يمسك بيدي في قوة، كأنما يخشى أن أفلته.

يده ترتجف، وملامح وجهها ترتعب، وعيناه تشيان بخوف ذاهل ... قبل أن أدركه كان يقف على حنية الطريق، يدير رأسه ويبكي.. قبض الزحام على الأفئدة فلم يهتم به أحد. أنهكه البكاء فجلس على الطوار يدعك في عينيه ويتلهى بالمارة ثم يعاود البكاء.

كان على أن أتقدم بالرغم من محاذير المدينة..

أبعدت عن ذهني كل ما سمعته عن حيل وألاعيب الشطار.. وأقنعت نفسي أن البكاء حقيقي، وليس حيلة ينخدع بها أصحاب القلوب الطيبة.

قطعت الطريق ومضيت اليه. حين تواجهنا خرقت عيناه قلبي.. وأذهلني حيرة تتبدى من العين ترفق الحجر.. أقعيت أمامه، أمسح شعره، ودمعه، ووجهه.. وأفرد ملامحه.. نظر إلى مرة، ومرة، وأدار رأسه مرة ومرة.. ثم بكى.. هدهدته فاشتد النحيب. ليست لي خبرة في معاملة الأطفال، لكنهم حين يتألمون يلوون قلبي ويرتج على الأمر.. أرفع ذراعي، أفرد أصابعي، أشكل ملامح وجهي.. وقد أتنطط حتى أنتزع البسمة.. لكنني فشلت، ولما تيقن من قلة حيلتي ابتسم فهدأ قلبي.

نفضت عنه الغبار، وسويت ثوبه، أخرجت قرصاً من النعناع فالتقطه، نظر إليه ملياً ثم بدأ يستحلبه في لذة وشت بها ملامحه. وجلست بجانبه دون اهتمام بنظرات الناس ويدي على كتفه، وسألته في حنو بالغ:

– أنت ولد طيب وحلو.. ما اسمك؟

حدق في، وهز رأسه وصمت.. كان صمته معلقاً بنظرة حزينة، فأخرجت قرصا آخر من النعناع.. حركه بين يديه ثم جرشه مرة واحدة والتفت إلى... احتضنته في ود حقيقي.. وقلت:

– كل واحد له اسم، يعرف به نفسه ويعرفه الناس..

حرك رأسه كأنما يوافقني فداخلني فرح .. أستطيع الآن أن أقدم العون.. لكنه قبل أن أعاود الكلام مسك لسانه بيده ثم حرك يده.. كانت الحركة تفي بالمعنى.. كان الطفل أخرس، فاشتد حزني وتعقد الموقف. من يهتم به في المدينة اللاهية، قاسية القلب!

أحس بضعف تجاه الأطفال، حرمت من هذا العالم البريء، الجميل، النقي، مبكراً.. أخذت مني زوجة الأب عالم الأحلام، وشغلتني بالهموم... لم يدرك أبي ما يحدث، ولم يهتم كثيراً.. لكن كان على لسان أعبر به أحياناً.. بل أصيح غاضباً حين يفيض بي الألم ولا أتحمله.. أما هذا الطفل فكيف يتصرف؟.. أم يكون تاه من أمه ؟.. أم تكون له زوجة أب زهقت منه وتركته وسط هذه الغابة من العيون التي لا ترى!.. ودارت رأسي..

وجاءني الزمان البعيد بوجه شرس ليحل محل الأم.. كم كانت تتوق لأبعادي !

واحتضنته، كأنني أحضن فيه طفولتي الغاربة، ودمعت عيناي.. رأى الدمع فبكى فاشتد ضغطي عليه. لاح لي أن قطعة فرت مني وعادت.. ونهضنا، أقبض على يده وأنا أتجه إلى محل البقالة.. لا بد أنه جائع.. سأشتري له لبنا، وشوكولاتة، ثم أمضي به إلى مطعم يطلب فيه ما يريد.. ثم يفعل الله بنا ما يشاء!

كان يمسك بيدي في قوة، ويلاصقني، ورعشته تنبض على جلدي.. ضحكت في وجهه فبدا وجهه مرعوباً، أشرت إليه بأصابعي نحو الفم طحنت أسناني، فأدرك المعنى وهدأ الوجه.

ظلت عيناه تحدقان في– تلوذان بي – حتى كدت أبكي.. استجمعت قوتي ونزعت يدي من أصابعه المتشبثة وأخرجت النقود ومضيت إلى البائع وعيني عليه.. عيناه تتوسلان ألا أغيب.. هكذا فهمت.

كنت ألحظه وأمد يدي، أضحك له ثم أرمي بالنقود.

وفي لحظة خاطفة لا تحسب في الزمان.. لحظة أن تناولت قطعة الشيكولاتة واستدرت، لحظة أن وقع البصر على مساحة خالية تتلقى قدمي.. لم أجده.. الطفل الأخرس غائب.. غير موجود.. غاص قلبي وارتعبت، جريت في كل اتجاه.. أيكون قد ذهب في تلك اللحظة التي تحسب بحركة استدارة الوجه! ومضيت إلى زاوية الشارع.. وانتظرت لعله

يعود.. ولما طال انتظاري قررت أن أبحث عنه فاتجهت إلى البناية الضخمة التي تقع خلفي، فهي المكان القريب الذي يمكن أن يختبئ فيه.. أو يهرب إليه.. منذا الذي أخافه أو أخذه في تلك اللحظة الخاطفة!

مضيت إلى مدخل البناية، وقطعت الممر الضيق..

كانت صورة الطفل لا تفارقني.. عيناه الواسعتان الحمراوان، والوجه المستدير المشرب بسمرة، والشعر المرمى على الجبين في خشونة ولزوجة، والغبرة تغطي الوجه كله، وتحدد خيط الدموع على خديه.

من يدلني عليه فأغمس قلبي في نظرته الواشية باستجداء مغموس بالهم !.. فلعلني أخفف من لوم النظرة ورعبها ! أكان يخصني بهذا العنب الحذر.؟ لم وجه إلى هذا الحزن الخائف دون خلق الله؟ أكان يرى أنني قادر على إنقاذه، والتخفيف عنه ثم خاب ظنه فمضى ؟. انغمس الطفل في قلبي وانتهى الأمر.. لاح لي أنه قطعة مني فرت ثم عادت. فلماذا يضن الطفل بتلك العودة ؟..

حين دلفت إلى الداخل واجهتني رائحة نفاذة تهب من كل اتجاه. كانت العتمة تلف كل شيء بالرغم من سطوع شمس آخر النهار. تفرست في كل شيء وتحسسته أيضاً.. أدركت عيني بعض المرئيات فخطوت في قلب العتمة.

ألمحت غرفاً متراصة كالحة الأبواب. دققت الأبواب بابا.. بابا.. لم يفتح لي أحد... حاولت أن أميز صوت طفل وسط أصوات مختلطة

وصلتني.. فعجزت.. اختلطت همهمات النسوة بحشرجة الرجال وعلت على صوت التلفاز.. قلت: فلأصعد.. ربما يكون مختبئاً في حنايا السلم.. وصعدت عدوا.. تحسست الحوائط.. ومسحت الردهات.. لم أر سوى القطط تنبش صفائح الزبالة.. توقفت فجأة فمدت مخالبها لا مبالية.. ثمة فتيات يجلسن أمام الأبواب ٠سبب وجودي ذعراً مفاجئاً. تجاورتهن صاعداً٠ استدارت واحدة وطوحت "بجيبتها" فلاح الفخذ مبروماً وأشارت إلى، لم أعبأ وصعدت حتى نهاية الدرج.. وانكسر خاطري.. وعدت نازلاً...

أثناء حركتي البطيئة أدركت أن ما رأيته صاعداً يختلف عما أراه نازلاً، لاحت البناية قديمة لدرجة تثير الخيال، انعقدت المفارقة بين المظهر الخارجي وطبيعة الداخل.. وتعجبت !.وتشككت أن يكون الطفل قد لجأ إلى البناية مع قربه منها.. الظلام يقبض على الفراغ، والأشعة النافذة من النوافذ حادة كالسكين.

أمعنت النظر في العتمة فإذا بوجوه تطل من فتحات الأبواب، جاحظة العينين، تتدافع في طابور مختلط ناحية السلم "داخلني هاجس أن أكون قد وقعت فريسة لبعض اللئام، وأن الطفل الذي أرجعني إلى زمن مضى لعبة في يدهم. لكنني لا أتصور أن يصل الأمر إلى هذا التحجر في القلب!..

رحت أتابع الطابور وأتملى المشي البطيء..

تحركت ناحية اليمين حتى أتفادى القوم..وأنزل.. ولوهلة مسروقة من زمن الموقف المشهود، لمحته بنفس الهيئة الغامضة التي فر بها.. غاص قلبي فلقد كان يئن تحت الأقدام، ورحت في لهفة إليه، أستعيده، فاستعصى على فحركة الأقدام لم تدع لي براحا أنفذ منه إليه.. سحبوه معهم حتى لم أعد أرى شيئا منه، وبدا لي أن عينيه تتدحرجان ككرتين حمراوين بلون العقيق.

انتفضت بكلى واقتحمت القوم، ظللت ملاصقا لهم وهم يهرعون إلى سرداب مظلم وملتو، فجأة انغلق الباب فاحتجزني.

نجحوا في حبسي لكنني عالجت الباب باستماتة حتى خرجت ورحت أصرخ:

– أين الطفل ؟..

ودرت على الناس أسألهم:

– هل رأيتم طفلاً صغيراً عيناه كحبتي عقيق ؟!..

أنكرني الرجال، وأشفقت النساء.

ظللت أخاطب الناس حتى تعبت. غالبني إحساس بالألم يكوي قدمي.. كان اللسع كالحصى المحمي: دفعت ساقي فإذا القدم عار ومتورم . صحت:

– أين الحذاء ؟..

استوقفت رجلاً وسألته:

– أرأيت في طريقك حذاء أحمر اللون بلون العقيق "مقاس أربعين"؟.

نتر الرجل نفسه من أمامي ورمح خائفاً.. وهو يردد "يا خفي الألطاف ..." سرت على باطن قدمي.. في اتجاه البناية التي خرجت منها.. ربما أعثر عليه هناك.. لمحت امرأة تتلكأ أمام محل الأحذية اللامع وتمعن النظر.. قلت لعلها رأته.. فهي لا تترك شيئاً إلا دققت النظر فيه.. ولن يمر عليها هذا الحذاء أحمر اللون دون أن يثير انتباهها.. تقدمت حتى كدت ألاصقها وسألتها في أدب جم:

– هل شاهدت في طريقك حذاء أحمر اللون بلون العقيق "مقاس أربعين"؟

تسمرت فجأة وواجهتني ثم مرقت مبتسمة هازئة بعد أن فحصتني باستخفاف وقالت ساخرة:

– "مقاس أربعين".. مقاس صغير لا يناسبني.

رحت أغرس عيني في مواطئ الأقدام.. وانقلب البحث في الوجوه.. إلى القدم، اختلط البحث عن الطفل بالبحث عن الحذاء.

كان الشباب والفتيات والأطفال يمرون أمامي في بهجة طاغية وصخب عال يحملون بين أيديهم ثياباً جديدة وفساتين وأحذية، وبالونات، وشموعاً رفيعة. كانت الخطوة موقعة، والصوت – أحيانا – منغما ، دققت في وجوه الأطفال فلم أر عينين حمراوين كالعقيق.. مع ذلك مضيت وراءهم.. فالأمر يوحي بوليمة أو فرح. كانوا من البهاء والأناقة والثراء مما

دفعني إلى تتبعهم.. من يدري ربما أعثر على الطفل مدعوا مع غيره على طعام يشتهيه!

مرق الجمع البهي إلى سرادق جميل، محلى بالطنافس، ومزين بالثريات، ومفروش بسجاجيد داكنة الحمرة. تراصت أمامه وحوله عربات غالية الثمن تضوي بالنور.. واقتربت.

يقف على المدخل رجل مديد القامة، يصافح الداخلين فرداً فرداً.. ابتسم ضاحكاً في وجوه الصغار فانسحبت الشفتان، وتباعد الفكان، فبدا فمه حفرة غويطه.. جاءني التعبير فأدركت أنني لازلت واقعاً تحت تأثير مرئيات البناية المعتمة. وتقدمت حذراً.

سألت أحد الخدم:

– من الرجل؟

حدجني في دهشة وقال:

– ألست من الحي؟

أردفت سريعاً:

– أنا غريب

قال في تؤدة وعجب:

– هو فلان.. صاحب الحي كله ورئيسه.

سألته مندهشاً:

– ولم الحفل.. الله..

– يحتفل بطهارة ولده..

ونظر إلى مشفقا وقال:

– ادخل فالوليمة ضخمة.

اتجهت فوراً إلى حيث يوجد الأطفال.. الوجوه طلية، والخدود وردية وتأكدت أن الطفل الأخرس لن يعرف طريقه إليهم.. السحنة مختلفة، والقلب أيضاً.. قلت أنزل ببصري إلى الأقدام.. ورحت أطوف ممعنا في الأحذية. حاصرني الخدم وطردوني ٠

لبدت خلف حافة المدخل يحجبني مستطيل معتم.. وبدأت أدقق النظر في الأحذية والبلغ.. ورأيته أحمر اللون في مقاسه المعتدل قابعاً خلف حذاء ضخم يتوهج لامعاً.. وأنا أمضى غليه سعيداً.. امتدت يد ضخمة منعتني.. حين قاومت، اقتادوني بعيدا ورموني بعنف.

وقبل أن أرتطم بالأرض لمحته، هو نفسه الطفل الذي فر مني وهرب.. رأيته مشدوداً من ساقيه والدم ينزف منه.. قانياً بلون العقيق.. صحت.. الطفل.. لا تذبحوا الطفل.

وأحكموا الحصار. وارتطمت بالأرض وغامت الدنيا في عيني "

كانت العتمة تصنع ظلالاً قاتمة وأنا أتذكر ما كانوا يرددونه قديما.. عن الطاحونة التي لا تدور إلا على دماء طفل مخطوف من القرى البعيدة.. لكننا في عصر الآلات المتوحشة !! أتحتاج أيضاً إلى دم الأطفال؟..

قررت أن أعود إلى الحفل وأن أصل إليه عبر ممر آخر.. درت حول السرادق ولففت حول الدار الأنيقة الملاصقة، واهتديت إلى فتحة دخلت منها.. كانت تصل بين الدار والسرادق.. ثمة ممرات كثيرة وردهات، أحدها سيفضي إلى السرادق، فالأطفال، فالأحذية.. وشعرت بالمسرة بدأت أدور في الردهات حتى اهتديت إلى ممر ضيق يلامس الحوائط، قلت فلأنفذ منه، تلصصت حتى عثرت على سلم.. فنزلت.. حين انتهيت وجدت نفسي في البناية أحسست بانقباض شديد.. كانت الحوائط تتساند تخترقها أشعة كحد السكين.

فكرت أن أدق الباب.. لكنني أحجمت صوت المرأة بالداخل، كان الشق في الجدار ولا جسمها الضخم المترهل.. بدأ لي أنها تقف على عتبة الممر المؤدي إلى الرحبة الواسعة ونزلت، إلى الرحبة في طريقي إلى الخارج.. لمحت رجلا يهرول، يحمل فخذ ضأن تتصاعد منه رائحة الشواء.. قلت: الطريق صحيح. واللحم من الوليمة القائمة.

صاح الرجل في وجهي.. فأفهمته أنني لا أنازعه لحمه، وإنما أبحث عن طفل أخرس، لأنه أخرس فقد ضل، ولأنه ضل فقد يقع في يد من لا يرحم.. ولأنه...

صاح الرجل مرة ثانية، واحتضن اللحم بين ذراعيه وولى هاربا.. صفق الباب وأحكم إغلاقه.

أصابني الوجع في جسدي كله، وأنهرت.. وارتعبت، كانت القطة السوداء الضخمة تقف فوق حفرة في الوسط.. تستطيل، وترتجف، وتتكرر. تضغط وتحذق، ينز العرق وتنفر العروق، وترتجف، تومض العينان، وتطل الوجوه، وتنقبض... تختفي الوجوه.. وتلد.

أخذتني الأرض فتمددت منهاراً.. تدور حدقة عيني بين القطة وبين الوجوه المطلة.. وأخذني هول مفاجئ.. القطة السوداء الضخمة تلد، ثم ترمي بولدها في الحفرة التراب عليه.. كانت تخفيه في اللحظة التي تختفي فيها

ملح في العيون الغضب ونفاد الصبر.

القطة تدور برأسها في حركة دائرية ، الوجوه تنمرت للقطة ، فعادوا للاختباء.. أدركتني رعشة متواصلة .. وابتهلت إلى الله أن يطمس عيونهم، فلا يرونني .. وباغتني وجوده!! ما الذي جعله يقف بينهم؟ .. هذا الرجل مديد القامة، الوجيه، الثرى، صاحب الحي .. ما الذي جعله يترك حفله، ويقف معهم يشير إليهم أن يفعلوا ما فعلوا.

وتصورت نفسي بين أيديهم فخذاً، وقلباً، ورئة .. واحتوائي خدر بدأ يسرى في جسدي .. وفي اللحظة التي تفرق بين اليقظة والمنام، .. الحضور

والغياب .. لمحت المرأة المترهلة حارسة الرحبة .. تشير إلى الأبواب .. فانفتحت وامتدت الأيدي إلى ....

كانت عيناي تحدقان في الحفرة .. وأنل أتلاشى شيئاً فشيئاً .. وكانت ملاحه .. تتخايل .. وعيناه الحمراوان بدون العقيق تتدحرجان إلى قلب الرحبة .. بئر العتمة المظلم.

حافّةُ العين

منذ صبيحة اليوم وهما يدبان على الأرصفة قادمين من بعيد ويتسحبان في بطء وحذر كأنما يريدان أن يتلاصقاً ويتداخلاً وكان – وهما يسيران – نقطتين صغيرتين باهتتين تذوبان وسط حشد من العربات والناس، والطين، والماء الراكد ورقد على ملامح البنت خنوع راض بحركة النفس، ومشوار الطريق، فالنية أن يقصد إلى السيدة زينب. لم تمنعهما برودة الجو ولا وحل الطريق، ولا الأسماك البالية، فالبال مشغول بالرجل الطيب وزوجته الصالحة ومأدبة الثريد بلحمها الدافئ.

كانت البنايات العالية ترتفع من كل جانب، تكاد تضغطهما وهما يمضيان .. فاختلسا السير على امتداد الرصيف .. والعجوز الذي يقبض بقوة على يد ابنته لا يستقيم خطوة أمام الهول الذي تبدى لابنته وعيناها تعجزان عن اللحاق بما ترى وتشاهد. وهي نفسها بعودها الطري لا تقوى عليه، ولا تصمد أمام المزاحمة .. كل شيء يخترقها، وعيناها لا ينطبق لهما جفن، ولا يستقر لهما "نن" فالعالم أمامها مترع بالأضواء .. يغطى النور كل شيء .. العمارات واللافتات، والسيارات والناس والوحل والمطر .. وكل شيء.

شدتها عمارة شاهقة بدت لها كالجبل، فمدت رأسها نافرة تشاهد الطوابق، أمالت الرأس طويلاً وخطف عينيها ثياب زاهية تتدلى وخفقة الهواء تزيدها بهاء، فتمنت أو يلفها ثوب جديد تتباهى به أمام أخوتها وأمها .. وقتها ستحقق لأمها أمنية أن تكون سنيورة .. وستظل تردد وهي تنظر، وتتملى .. سبحان من صور.

ويتسع الطريق في عينها ويضيق، ويأخذها انبهار طاغ بكل شيء .. زجاج المحلات، وأبواب العربات، وصدور الفتيات، وأقدام النساء، وضحكة الصغار، والأحذية اللامعة .. تتقاطر في العين مرئيات لا تقوى على الإمساك بها .. ولكنها هذه المرة أمسكت بها ورقدت عليها. كانت المرأة تهبط سلم العمارة العالية، وكانت تؤرجح في يدها حقيبة سوداء مزينة بخيوط صفراء كالذهب .. ولاح الحذاء لامعاً والوجه نظيفاً، والرقبة عارية، والبطن ممتلئة. والجسد مبروماً، والبالطو مفتوحاً، ظلت تتابعها حتى دخلت السيارة .. وتلكأت في سيرها .. وهي توهم العجوز بأن الحذر واجب، وتفادى الحفر والطين يقتضى الشعرات النافرة إلى نظامها الأنيق، تضغط شفتيها الحمراوين في ذمة خفيفة .. ويحتويها المقعد وتستريح فيه .. وخرج من السيارة صوت ارتاعت له البنت، .. ولم يفتها البطن الممتلئة، ولا حقيبة اليد التي نامت في المقعد الخلفي. واندهشت وهي ترى المرأة تقود السيارة في سهولة ويسر .. والرجل الجالس في عربته خلفها يبتسم. غلطت الابتسامة ملامح الوجهين معاً. ومرقت سيارة الرجل مسرعة فارتحت البنت وخمشت وجهها، ولوت رأسها بغل فلمحت الرجل يحدق فيها فارتجفت وأسرعت ومال جذعها وكادت تسقط.

انكفأ العجوز على ركبتيه ولم تسعفه عصاه ولا كتف البنت. دارت يده في كل اتجاه، وشد على ثوبها فلاح عظام الكتف ناتئاً. جمعت نفسها وأعطته العصا ووضعت يده على لحم الكتف، وتمشى على ملامحها ضيق يعصر الوجه وألم يأكل القلب، وطالها رذاذ الوحل.

وقبض العجوز بيده على لحم الكتف وقال غاضباً:

– تنبهي للطريق.

ناءت البنت تحت قبضته ومضت صامتة. ووقف العجوز فجأة، أدارها إليه حتى كاد وجهها يختفي في بطنه الضامرة. تملاها بعيون أطبقت عليها جفون مرتخية وأصابعه تلملم مزقة الثوب.

– لا تنشغلي بما في الطريق.

– ولكنك لا ترى ما أراه.

أرخي قبضته على الكتف وضرب بعصاه الأرض. مدت البنت يدها ومسحت رشات الطين عن وجهه وقالت في وهن:

– ما أراه لا أقوى عليه.

مد ذراعه على طولها وأحاط بالبنت:

– ستشاهدين الكثير فاصبري وتحملي.

وامتدت أصابعه تتحسس لحم الكتف وهمس في رقة:

– لا تنسى أننا قد نتأخر.

وضحك في بساطة .. ولم يفتها صوت الحزن في ضحكه:

– وقد يفوتنا الطعام.

أسرعت خطواته وبدا كأنما يقودها:

– الرجل الطيب يقدم طعامه مبكراً وامرأته الصالحة قد تتحفنا بثوب قديم يناسبك.

والبنت تسحب العجوز وعيناها على الإسفلت المبتل بالطين. تدور الدنيا حولها، والشارع يضج وعيناها على الإسفلت. تشتد حركة السير وتختلط الأجساد وتعلو الأصوات وتتصادم العربات وعيناها على الإسفلت .. يتدافع الناس بالرغم من برودة الجو وقتامة الغيوم وزخات المطر .. وعيناها على مواطئ القدم فالعجوز لا يتحمل سقطة أخرى.

يرتسم القلق على الوجه، ويرشح من العين، والعين مفتوحة على أدغال البشر، والعجوز منتصب القامة في جفاف، يكاد ينقصف لأقل حركة وفجأة تطوح الجسد، وغاصت عصاه في الحفرة، وانطرح على الأرض.. حدث ما خافت منه .. وتصرخ البنت، وتقف حبات الدموع على حد الحفن .. وترتعش البنت وتلبد في مكانها ترتجف، وعيناها على أبيها .. ويسرع المارة وينهضون العجوز، تأكلها العيون، وتربتها الأكف وتدفعها الأيدي، وينتقل العجوز إلى الرصيف، ويسند جذعه إلى حائط

بناية كبيرة، وينهد جالساً بجميع جسمه، ممسكاً عصاه بكلتا يديه، وتلبد البنت إلى جواره وترتجف.

قال العجوز كأنما يحادث نفسه:

– ما عدت تصلحين.

أحس برجفتها فمد يده ولامست أصابعه جلد الوجه. تقلصت الملامح تحت لمساته وأحس بدمدمة فأدرك أن البنت تنوء بحمل قيل. كان الإحساس بالعجز يحتويها، والأشياء تضغطها تخطفها منه. ولانت ملامحه وارتجفت جفونه المشدودة، ولاصقها حتى كاد الوجه يختفي في البطن الضامرة ..

– مالك ..

رفعت رأسها ورأت وجهاً مندهشاً ومتألماً:

– لم يحدث أن انشغلت عنى كهذا اليوم.

وتمتمت، وتحركت الشفتان .. وخرج الصوت مرتعشاً ومكتوماً:

– حزينة .. وتائهة.

مسد الشعر، وتخللت الأصابع خصلات ملبدة:

– ابكي إذا أردت .. فقد تستريحين.

ونظرت إلى أبيها، وشدت جسمها، وزمت عينيها بقوة كأنما تضغط على محابس الدمع وقالت في وهن:

– ضاع الفرح منذ خرجنا من الزقاق.

– كثيراً ما خرجنا يا ابنتي.

زفرت البنت في تهويمة ساكنة:

– اليوم مختلف.

في الزقاق يمرح الهم .. ولكنها الآن تسير في طريق يغمره الضوء، وتقتحمه العيون وتتشاهق فيه البنايات، وينسد من الزحام. ليس فيه ماعز، أو حمير أو زبالة .. أو يغسلن الملابس أمام العشش .. ونظرت البنت إلى السماء، ورأت الغيوم والسواد ودعت الله أن تكف العين ويستقيم الطريق. وقادت أباها، وتخطت الأرصفة وتنبهت تماماً إلى المفارق، ومنت نفسها بفستان قديم ..

وحين رفعت رأسها وجدت الرجل يحدق فيها ويبتسم .. وعصاه مشرعة كأنها الدليل.

الفيلُ الصّغير

خرج الفيل الصغر كعادته كل يوم للتنزه، فهو يحب أن يتجول في الغابة، ويستمتع بأشجارها الخضراء الطويلة، وبأزهارها الحمراء، والصفراء، والبيضاء التي تزين نباتات الغابة.. وكان يحب أن يرى الناس الذين يعيشون على حافة الغابة.

رأي الصغار يلعبون. أنهم دائماً يضحكون ويمرحون، وترتفع أصواتهم في مرح وبراءة. وخيل إلى الفيل أن الأشجار كانت تضحك لفرحهم، فتتراقص الأغصان، وتغرد الطيور وتتساقط الثمار الناضجة، فيجرون ويلتقطونها، ثم يمضون إلى النهر، ويغوصون ويستحمون. وابتسامة حلوة تكسو وجوههم فتضحك لهم الدنيا.

ووقف الفيل مدهوشاً بفرحهم، وتخفي خلف شجرة ضخمة، حتى يراهم عن قرب. وتمنى لو كان واحداً منهم، إذن لضحكت له الأشجار كما تضحك لهم، ولجاءت إليه حبات الثمار الطازجة كنا تجيء إليهم .. ولكن ..

ولأنه لم يستطيع اللعب معهم انصرف مهموماً حزيناً .. وظل يحدث نفسه .. أن عاجز عن أن ألهو مع الصغار، .. أنا لا أقوى على مجاراتهم .. إنهم كالغزلان الصغيرة .. وأنا فيل صغير وضخم.

وفكر الفيل بخبث، وقرر أن يحرمهم من اللعب. كان غاضباً، وكان ثائراً. وحيت الغض لا يفكر العقل جيداً ولا يستقيم الفعل ولا ينبض القلب بحب الغير.

كانت ضحكات الصغار لا تزال تتردد في سمعه. أطبق أذنيه وجرى. احتك بالأشجار، داس بأقدامه الهائلة النباتات الطرية. واندهش لصرخات البنات .. واندهش من نفسه فهو لم يحس بقلبه حجراً صلداً كاليوم.

واندفع الفيل إلى النهر، وعبء ما استطاع من ماء، واستدار. كان غضبه شديداً. وتسلل إليهم. وتمنى في لحظة سريعة كالبرق لو كان مصلهم. واندفع في هياج شديد. تعجب الصغار وتوقفوا. ظنوا أنه قادم يتودد إليهم، يلهو معهم .. فتحركوا نحوه .. واندفع الماء من الخرطوم الطويل .. وبلل الوجوه والثياب. دبدب الفيل في فرح فانسحب الصغار واختفوا.

وظل الفيل كلما خرج ورأي الصغار يلعبون، يذهب إلى النهر ويملأ خرطومه، ويفاجئ الصغار ويرش عليهم ما به من ماء. وفي المرات الأخيرة تعمد الفيل أن يمتص الماس الطيني العكر. كان يرى في ذلك لذة حين تسود الوجوه وتتلطخ الثياب. وقرر الصغار مواجهة الفيل. رأوا فيما يفعله ظلماً بهم .. قالوا: كلنا نتحمله حين كان الماء رائقاً ونظيفاً، أما الآن فلا .. لا ..

وأحس الصغار بالحزن. أنهم لا يريدون إيذاءه، لكنه لا يحق لأحد أن يحرمهم حقهم في اللعب، والمرح، وحب الحياة، حتى ولو كان الفيل نفسه.

في الصباح، والندي لا يزال معقوداً على الأوراق، خرجوا وفي أيديهم حبل غليظ، وفي عيونهم ترقب، وفي قلبهم حزن.

جاء الفيل والصغار يلعبون.. كانوا حذرين .. ومترقبين .. كان كل واحد منهم يعرف دوره .. وسرعان ما التف الحبل الغليظ حول الخرطوم، وسرعان ما انعقدت عقدة محكمة .. وجذب الصغار الحبل من طرفيه. واهتاج الفيل فجروا واختبئوا ..

حاول الفيل أن يتخلص من الحبل فلم يستطع. شد الحبل بقدميه، حكه في الشجرة، دفسه في الماء، لوح به في الهواء .. لكنه ظل عاجزاً عن الخلاص. والعقدة تضغط عليه، وناباه العاجيان الصغيران يحتكان به ويؤلمانه.

وغضب الفيل، وصاح، وثار.

توقفت الأشجار، وتسمعت الأوراق، وصمتت الطيور وخرجت الفراشات تحوم .. الكل يتوقع الخطر.

والصغار – بعيداً – غلبهم الحزن.

لم يتوقعوا أن يتألم الفيل كل هذا الألم، وشعروا بعطف كبير نحوه، وبحنان زائد. وحز في نفوسهم أن يقف منكسراً، مستسلماً للألم، وقد ارتخي خرطومه وتدلى.

ذهب أحد الصغار إليه في خفة وحذر .. لمحه الفيل فأرخي أذنيه، وأطبق جفنيه. وهال الصغار دمعة كبيرة تنزل من عين الفيل المسكين فتحرق الأرض!

نسى الصغار حذرهم، وطغى عليهم الإشفاق والعطف ارتموا عليه يتحسسونه، ويربتون عليه، ويفكون الحبل، واندفع الماء كالرشاش الهائل لم يعبئوا بالماء الذي أصابهم.

وارتاح الفيل، ولوح بخرطومه.

وراح يطلق صيحات الفرحة.

وتعجب الفيل أن يكون الخلاص من ألمه، آتياً ممن حاول إيذاءهم .. وسار إليهم .. وضحك لهم .. وفرح بهم. ومد لهم خرطومه، وصعد الصغار.

وطاف بهم الفيل وسط الغابة .. فرحاً ومزهواً .. فهو من اليوم يستطيع أن يلعب معهم، ويمرح، لأنه أصبح صديقاً لهم.

الفهرس

البنات والقمر ٥

البسمة النادرة ١٦

الرداء ٢٢

العُروج ٣٤

انتزاع الوشم ٤٧

غارة القمر ٧٢

قيام الجسد ٨٦

المتاهة ١٠٠

حافّةُ العين ١١٢

الفيلُ الصّغير ١١٨